أدهم شرقاوي

"قس بن ساعدة"

السَّلامُ عليكَ يا صَاحبي



Kalemat

سُر مَن قرأ

السّلام
عليك يا صاحبي

السّلام
عليك يا صاحبي

أدهم شرقاوي
قس بن ساعدة

دار كلمات للنشر والتوزيع
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

دار عصير الكتب
مصر 2021

ردمك: 978-9921-768-14-5

السّلام عليك يا صاحبي

أدهم شرقاوي

قس بن ساعدة

2021

kalemat



الإهداء

إِلَيْكِ..

وَحْدَكِ تَعلَمينَ أَنَّ هَذا الكِتابَ لَكِ!

1

السّلام عليكَ يا صاحبي،

نأتْ بنا الدنيا، وصيَّرتنا كُلاً في بلد،
لقد استكثرتْ عليَّ أن أتنفسَ هواءً مرَّ من قبل برئتيك،
وأشمَّ نسمةً سبق ولفحتك فجاءتني محملةً برائحتك،
ألا وإن المحبين يتعزون بالروائح!
ومن قبل قال يعقوب عليه السّلام: إني لأجدُ ريح يوسف!
فيا يوسفي الوسيم، والعذب، والرقيق،
ليتَ لي قوةً لكنتُ أبقيتُكَ معي، ووفرتُ عليَّ وعليكَ عناء الفِراق!
لو كان الأمر بيدي ما تركتهم يطرحونك أرضاً،
فكل أرضٍ أنتَ لستَ فيها أنا فيها غريب!

ولو كان الأمر بيدي حين ألقوكَ في جُبِّ السَّفر،
لكنتُ سبقتُ السيارة إليكَ،
وألقيتُ دلوي وانتشلتُكَ،
ولم أكن لأبيعك بثمنٍ بخسٍ!
كل الدنيا ثمنٌ بخسٌ لكَ يا صاحبي!

كنتُ سأنتشلك،
وآخذك إلى صدري وأقول لكَ:
لا بأس أنا هنا!

وأجفف روحك المبتلة بماء الفراق،
وآخذك إليَّ وأقول لكَ:
أنا إخوتك كلهم،
نيابةً عن إخوتك الذين تركوكَ!
أنا أمكَ التي تشتاقها،
أنا أبوكَ المكلوم على فقدكَ،
أنا كل هؤلاء معاً، لأني أحبكَ أكثر منهم معاً!

لو كان الأمرُ بيدي، ما تركتهم يُغلقون عليكَ الأبواب،
وما سمحتُ لهم أن يتهموكَ فأنت عندي فوق التهمة!
أنتَ الذي لا تروبني بشأنك رائبة،
لو كان الأمر بيدي لواسيتُكَ في السجن،
الغربة سجن يا صاحبي، واللّهِ سجن!
ولكنتُ سنابلكَ الخُضر كلها وما مسّكَ معي من يباس!

يا صاحبي،
صدقني حين أخبركَ أنه يكفي أن يرحلَ شخصٌ واحد عنكَ،
حتى تستوحش من نفسكَ،
وتشعرُ بفراغ مهول كأنك ثقب أسود،
لو ابتلعتَ كوكباً كاملاً فلن تسدَّ جوعك!
ثمة جوع لا يسده إلا شخص واحد،
وأنا جائع إليكَ!

والسّلام لقلبكَ

2

السّلام عليك يا صاحبي،

تسألني: ما أجمل شعور في الدنيا؟
فأقول لكَ: أن تشعرَ أنكَ لا تهون!
أن تشعر أنكَ بمأمن ولو أخطأت،
وأنك مفهوم ولو خانتك مفرداتك،
وأنك لا تُستبدل ولو كنتَ في مزاج سيءٍ،
وأنك لا تُغادَرُ ولو شعرتَ أنت برغبةٍ في أن تغادر نفسكَ!

يا صاحبي،
لا شيء أجمل من أن تعرف أن خاطرك سيُشترى على الدوام،
وأن دمعتكَ ستُمسح مهما كان الظرف،
وأن يدكَ لن تُتركَ مهما بدا الوضع شائكاً!

يا صاحبي،
لا شيء أجمل من أن تعثر على الشخص الذي
يقول لكَ: أنتَ عندي أولاً!
تأتي قبل الجميع، وقبل نفسي أيضاً،
ثم تجده لا يقول فحسب، وإنما يتصرف على هذا الأساس أيضاً!
يضع راحتك قبل راحته،

وسعادتك قبل سعادته،
ولو علم أن أمراً فيه سعادتك وحزنه،
لاختار أن تسعد ولو كان سيحزن!

يا صاحبي،
لا تحسبني أُبالغ،
هؤلاء نادرون ولكنهم موجودون!
لا تحسَبني أُحدثكَ عن مستحيلات العرب الثلاثة:
الغول والعنقاء والخل الوفي،
فإن لم تعثر على هذا الشخص،
فحاول أن تكونه أنتَ!

والسّلام لقلبكَ

3

السّلام عليكَ يا صاحبي،

سُئِلَ الإمامُ أحمد بن حنبل:
كيف السبيلُ الى السّلامةِ من النّاسِ؟
فأجاب: تعطيهم ولا تأخذ منهم،
ويؤذونك ولا تُؤذِهم،
وتقضِي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاءِ مصالحك،
فقيل له: إنّها صعبة يا إمام؟
قال: وليتك تسلم!

أسوأ ما في الأمرِ يا صاحبي أننا لم نعد نبحثُ عند الناس عن الغنيمة،
وإنما عن السّلامة!
أن يُسدوا إليكَ أبسط حقوقك؛ يعني أن يدعوك وشأنكَ!
ولكنك تكتشفُ أن هذا الأمر مستحيل!
إنهم يعيشون في حياتكَ أكثر مما يعيشون في حياتهم،
وينسون أنَّ أنسبَ مكانٍ لأنوفهم هي في وجوههم كما خلقها الله،
وليس في حياتنا كما يريدون هُم!

وإنكَ واللهِ أحياناً تريدُ أن تعرف ما الذي يُسعدهم لتفعله

وتنجو بنفسك،

ولكنك يا صاحبي تفشل!

إذا ذهبتَ إلى المساجد قالوا متشدد، وإذا ذهبتَ إلى المقاهي قالوا مُنحلّ!

إذا استشرتَ زوجتك بأمرٍ قالوا محكوم وأرنب، وإذا لم تستشرها قالوا مستبد!

إذا سمعتِ كلام زوجكِ قالوا ضعيفة الشخصية، وإذا لم تسمعيها قالوا مسترجلة!

إذا جلستَ بين كُتبكَ قالوا مُعقَّد، وإذا شاهدتَ كرة القدم قالوا تافه!

إذا عملتِ قالوا أضاعتْ بيتها، وإذا لم تعملي قالوا يا خسارة الشهادات!

لا السِّكير يعجب الناس ولا التَّقي،

ومن لم يجدوا فيه عيباً، اخترعوا له واحداً وعيروه به!

ألم تسمع ما قال قوم لوط ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

عندما لم يجدوا لهم خطيئة عيَّروهم بطهارتهم!

وما زلتَ أنتَ تسألُ كيف السبيل إلى إرضاء الناس؟!

لا سبيل يا صاحبي، لا سبيل!

والسّلام لقلبكَ

4

السّلام عليك يا صاحبي،

يقول زوربا في الرواية:
بعض الناس أحرارٌ فعلاً،
وكثير منهم يظنون أنهم أحرار
لمجرد اتساع الطوق قليلاً حول رقابهم!
صدقني، إذا أخبرتُكَ أن الإنسان يكتسبُ حريَّةً
بمقدار ما يكون عبداً للّه!
وأنّه كلما ترقَّى في مرتبة العبودية للّه سبحانه،
كلما ارتقتْ روحه درجات أكثر في سُلّم الحرية!
والعكس صحيح، كلما ابتعد الإنسان عن اللّه ،
فإنه صار عبداً لشيءٍ آخر!

ليس بالضرورة أن تسجد لشيءٍ حتى تكون عبداً له،
يكفي أن تكون أسيره لتكون عبده!
المنصب قد يُصبح معبوداً للمرء،
والمال قد يُصبح إلهاً وإن لم يُسجد له!
العادات والتقاليد هي الأخرى يحدث أن يجعلها الناس آلهة!

يا صاحبي،
أكثر الناس حرية هم الأنبياء،

ذلك أنهم كانوا أكثر الناس عبوديةً لله!

أما نحن،

فكلما اقتربنا من مقام إيمان الأنبياء كلّما تحررنا!

حين أتأمل سيرة بلال بن رباح أعرفُ أنه ذاقَ طعم الحرية قبل أن يشتريه أبو بكر ويعتقه!

في اللحظة التي آمن فيها بلال، حلَّ روحه من قيد العبودية وصار حراً!

وحين طرحه أمية بن خلف على رمال مكة الملتهبة،

وبدأ يجلده ليرجع عن دينه، وهو يقول له ملءَ قلبه: أحدٌ أحدٌ!

فهذا يعني أن أمية لم يكن يملك إلا جسدَ بلال،

أما روحه فكانت ملكه،

وما الحرية إلا أن يملكَ المرءُ روحه!

أبو بكر لم يفعل أكثر من إعطاء بلال صك إعتاق جسده من العبودية،

أما الروح فقد حررها بلال بإيمانه قبل هذا بكثير!

والسّلام لقلبكَ

5

السّلام عليكَ يا صاحبي،

أكثرُ النَّاسِ عطاءً لشيءٍ هم الذين حُرموا منه،
إنهم يُعطون ببذخٍ لأنهم يعرفون أكثر من غيرهم مرارة الحِرمان!
أو لعلَّ الذي يُعطيكَ أراد أن يُعوِّضَ نفسه ما فقد،
ولعلَّ الذي أحبَّكَ بجنونٍ أرادَ أن يقول لكَ:
لقد تمنيتُ أن يُحبني أحدٌ مثلما أحببتُكَ!

يا صاحبي،
ليس كل من واساكَ خالياً من الحُزن،
لعلَّه عرف معنى أن يحزن المرءُ ولا يجد أحداً يواسيه!
ولا كل من أعطاكَ ثريٌّ،
لعلَّه عرفَ جيداً معنى أن يحتاجَ المرءُ ولا يجد!
ولا كُل من ربتَ على كتفكَ ليس له هَمٌّ،
لعله أراد أن يدعو بطريقةٍ أخرى، فيقول صامتاً وهو يُطبطبُ عليكَ:
ها أنا أربتُ على أكتاف الناس فاربِتْ على كتفي يا اللّه!

هذا الحياة قاسية يا صاحبي،
وكلُّ إنسان يخوضُ معركةً لا يدري بها أحد،

خلف الضحكات المُدوِّية جروح غائرة،

ووراء صور النِعمة حرمان قاتل،

حتى الكتابات عن الحُب هي في أحيانٍ كثيرة شوقٌ لحبيب مُنتظر،

يحدثُ أن يكتبَ الناسُ عما يفقدونه أكثر مما يجدونه،

فمُرَّ هيِّناً، وإياكَ أن لا ترى من الناس إلا الذي ترى!

والسّلام لقلبكَ

6

السّلام عليكَ يا صاحبي،

يُرسلُ اللّه تعالى لنا الهدايا بطريقةٍ لا نفهمها،
هذا لأنَّ فكرنا قاصر، ونظرتنا محدودة،
تأتينا المِنحةُ على شكلِ مِحنةٍ،
والعطاءُ في هيئةِ منعٍ،
والجبرُ في هيئةِ كسرٍ،
ولكن متى استقامَ لكَ الفهمُ علمتَ أنَّ اللّه أرحم بكَ منك،
وأنَّ ربَّ الخير لا يأتي إلا بخير!

قال عبد اللّه بن عباسٍ لتلميذه عطاء بن أبي رباح:
ألا أُريكَ امرأةً من أهل الجَنَّة؟!
فقال: بلى!
قال: هذه المرأة أتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول اللّه، إني أُصرَعُ، وإني أتكشَّفُ، فادعُ اللّه لي!
فقال النبيُّ ﷺ: إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجَنَّة، وإن شئتِ دعوتُ اللّه أن يُعافيكِ!
فقالتْ: بل أصبر. ولكني أتكشَّفُ، فادعُ اللّه ليَ أن لا أتكشَّف!
فدعا لها ﷺ.

المرضُ إحدى هدايا اللّهِ يا صاحبي!

وإنه يبتليكَ به ليغفرَ لكَ ذنوباً، لم تكُن لتبلغَ غفرانها بطاعتكَ، ويبتليكَ به ليُرقِّقَ قلبكَ، فلا شيء أنفع للقلب من لحظة ضعفٍ، تُريه الدنيا على حقيقتها!

ويبتليكَ به ليُقربكَ، فرُبَّ منزلةٍ في الجنةِ خُلقتَ لها، وعباداتكَ أقل من أن تبلغها، فيُصيبُكَ ليرفعك، ويبتليكَ به لأنه رآكَ تبتعدُ عنه، فأرادَ أن يُعيدكَ إليه،

تخيَّلْ روعة المشهد، أن يغارَ اللّٰه على قلبكَ!

والسّلام لقلبكَ

7

السّلام عليكَ يا صاحبي،

إني أُعيذكَ أن تستطيلَ البلاء فتتسخطَ،
أو أن تستبعدَ الفرجَ فتيأسَ،
فتكون كالذين يعبدون اللّه على حرفٍ،
إذا رأوا من اللّه ما يُحبون رضوا،
وإن رأوا ما يكرهون سخطوا!

يا صاحبي كُلّ شيءٍ يجري بقدر اللّه،
وبتوقيتٍ معلوم لا نُدرك حكمته،
لو استخرجَ اليتيمان كنزهما قبل أن يبلغا أشدهما،
لضاع المال وما انتفعا به!
في كل تأخيره خيرة نحن لا نعلمها!

هذه الدنيا دار امتحان يا صاحبي،
واللّه ناظرٌ إلى قلبكَ،
فإذا نزلَ بكَ ما تكره،
أو تأخر عنكَ ما تُحب،
فلا يكُن في قلبك إلا الرضا،
فلا شيء أبغض إلى اللّه من أن يرى سخطاً من عبده على قدره!

أحياناً تتأخر الأمنيات يا صاحبي،

لأنكَ لم تنضج بعد لتحافظ عليها،

وتتأخر لأن تسليماً في قلبكَ لم يكتمل بعد،

وتتأخر بذنبٍ أنت مقيم عليه، فيريدُ الله منكَ أن تعطيه أولاً ليعطيك ثانياً!

وتتأخر لأنكَ لم تأخذ بما يكفي من السبب،

وقد لا تأتي أبداً، لأن الخير في أن لا تأتي،

فأحسِنْ الظن بالله!

والسّلام لقلبكَ

8

السّلام عليك يا صاحبي،

كانت جدتي رحمها الله تمسحُ على رأسي حتى أنام،
وكانت كل ليلةٍ تروي لي حكاية ماتعة،
فحدثتني ذات ليلةٍ عن رجلٍ قصد صديقاً له ليستدين منه،
فاعتذر منه صديقه لأنه في ضيقٍ أيضاً،
ولكنه أرشده إلى رجلٍ آخر وقال له: اذهبْ إليه،
فستجد ضالتك عنده!
ذهب الصديقُ إلى بيت الرجل ليستدين منه فوجده
يداوي شاةً مريضة،
فقال في نفسه: يا له من بخيل، على كثرة غنمه،
لم يُفرِّط في شاةٍ مريضة، فكيف سيعطيني؟!
فعادَ إلى صاحبه وأخبره بالأمر،
فقال له صاحبه: عُدْ إليه فإنه لن يَرُدَّك!
فعاد إليه مجدداً، فسمعه يأمر أولاده أن يلتقطوا
كل حبةِ قمحٍ تقعُ منهم في الطريق أثناء ذهابهم إلى الطاحونة!
فقال في نفسه: إن رجلاً لا يُفرِّطُ في حبات قمحٍ لهُوَ
رجل بخيل ولن يعطيني!
فعاد إلى صديقه مرَّةً أخرى، وحدّثه بما سمعَ،
ولكنّ الصديق طلبَ منه أن يرجع إلى الرجل،
ويسأله فإنّه لا يردُّ سائلاً!
فعاد إليه في المرة الثالثة،

فسمعه يطلبُ من بناته أن يخفضوا ضوء المصباح

كي يحافظوا على الزيت فيه أطول فترةٍ ممكنة!

وبينما هو يحدثُ نفسه ويقول: واللهِ ما يزداد هذا الرجل

في عيني إلا بخلاً،

إذ فتح الرجل باب بيته فوجده ماثلاً أمامه،

فسأله: ما الذي أتى بك؟

فقال له: سأصدقُك القول فإني لا أكذب، أنا رجلٌ نزلتْ بي حاجة،

فقصدتُ صديقي، فإذا هو يشكو مما منه أشكو،

فأرشدني إليكَ لتعينني!

وهذه ثالث مرةٍ آتي إليك، في الأول رأيتُك تداوي شاةً مريضة،

فقلتُ إنك تفعلُ هذا رغم كثرة غنمك، فهذا يدل على أنك بخيل!

وفي الثانية سمعتك توصي أولادكَ بالتقاط حبات القمح

التي تسقط في الطريق إلى الطاحونة،

فقلتُ هذه حالك والقمح لديك كثير، إنك حتمًا بخيل!

وها أنتَ توصي بناتك أن يخفضوا ضوء المصباح ليوفروا زيته،

فازددتُ يقيناً أنك بخيل!

ابتسم الرجلُ وقال لضيفه: أما الشاة فكانت قوية،

وقد شربنا لبنها دهراً، فأين الوفاء إذ نتركها حين مرضتْ!

وأما القمحُ فأوصيتُ أولادي أن يجمعوا ما يسقطُ منه

ليتعلموا احترام النعمة، ولأن الإنسان لا يعرفُ في أي طعامه تكون البركة!

وأما وصيتي لبناتي بخفض ضوء المصباح حفاظاً على الزيت،
فإني أعلمهنَّ الحرص والتدبير، وأنا رجل ميسور،
وهُنَّ مغادرات عما قليل إلى بيوت أزواجهنَّ وقد يكون أحدهم فقيراً،
فأردتُ أن أعدهنَّ للحياة!
اعتذر الرجلُ من صاحب البيت على سوء ظنِّه،
فقال له: لا عليكَ، والآن سلني حاجتكَ،
فسأله حاجته، فأعطاه، ومضى في سبيله!

يا صاحبي،
تعلمتُ باكراً من هذه القصة أن بعض النُّبل لا يُدركُ بسهولة،
وأن لا أحكم على كل شيءٍ من بعيد،
وأن بعض الناس ينظرون أبعد بكثيرٍ مما ينظرُ بقية الناس!
تخيَّلْ هذا الوفاء يا صاحبي،
إنه لم يُفرِّط بشاةٍ كان لها معه ماضٍ جميل!
أفترى أن مثل هذا يُفرِّطُ بالناس؟!

يا صاحبي،
إن الأمور الصغيرة تخبرك عن الأمور الكبيرة ،
أشياء بسيطة، تفاصيل قد لا تحسبها مهمة،
ولكنك لو تأملتَ فيها جيداً، لو نظرتَ إليها بعين الفراسة،
لوفَّرتَ على نفسكَ عناد معرفة الناس عن قرب!

والسّلام لقلبكَ

9

السّلام عليكَ يا صاحبي،

لا تحسبنَّ الفراق هيناً،
فلو كان كذلك ما سُمي العام الذي ماتت به خديجة عام الحُزن،
لا يطيقُ المرء فقد أحبابه ولو كان نبياً!
ثم إنه لم يكُن حزنَ عام وانقضى،
بقيَ النبيُّ ﷺ يَذكرها حتى آخر عمره،
البعض سيبقون ينقصونكَ إلى الأبد!

نحن من لحم ودم يا صاحبي،
«واللهمَّ لا تُؤاخذني فيما لا أملك»
قالها النبي ﷺ قاصداً قلبه،
فتعزَّ بمن هو أهل للعزاء!

وحيدٌ أنتَ هذه الليلة يا صاحبي،
وحيدٌ كبيت مهجور غادره قاطنوه،
كمحطة قطارٍ قديمة،
كشجرة في رأس جبلٍ لا يجلس تحتها أحد!
تتوضأُ، وتُصلي ركعتين، وتضعُ يدكَ على صدركَ،
وتقول: قلبي يا الله!

فلا يخطرُ على بالكَ إلا قول ربك ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾
فتترك كلّ شيء بيد اللّه، وأنت تعلم أن ما أخذه منك فلحكمة،
وأنه أرحم بك منك،
وأن كل أقدار اللّه خير ولو أوجعتكَ!

تحاملْ على نفسكَ يا صاحبي واُثبُتْ،
أنتَ لا تملكُ رفاهية الانحناء!
فلعلكَ ثباتٌ لغيركَ وأنت لا تدري،
ربما أراد كثيرون أن ينحنوا،
ولكنهم لما رأوكَ ثابتاً ثبتوا!
تذكر أولئك الذين يرون فيكَ كتفاً وسنداً،
والذين ينظرون إليك بعين الإجلال،
والذين حمّلوك أمانة أرواحهم في أقدس طريق في هذه الحياة،
تذكّر كلّ هذا يهن الأمر عليك،
وإن كان واللّه لا يهون!

والسّلام لقلبكَ

10

السّلام عليكَ يا صاحبي،

هوِّنْ عليكَ فإنَّ الأمور تجري بتقدير الله،
وكل أقدار اللهِ خيرٌ وإن أوجعتكَ!
تسألُ الله شيئاً بإلحاحٍ فلا يعطيكَ إياه فتحزن،
ولا تدري أنكَ كالطفلِ الصغير الذي يبكي إذا رأى حبوب الدواء الملونة،
يُريدها فتمنعه أمه، لأنها تعلمُ أنه يريدُ ما فيه هلكته!
وللهِ المثلُ الأعلى، وفي منعِ اللهِ عطاء!
وتفقدُ شيئاً عزيزاً فتحزن، ولا تدري أن اللهَ لا يأخذُ إلا ليعطيَ،
عندما قتلَ الخضرُ الغلام،
بدا الأمر أول وهلةٍ جريمة نكراء،
وكذلك حسبها موسى عليه السّلام،
ولا شكَّ أن قلبيّ أبويه انفطرا لفقده،
ثم كُشفَ الغيبُ،
وتبينَّ أن قمة الرحمة كانت في قتله،
يأخذُ الله سبحانه من دنياكَ، ليحفظَ لكَ دينكَ!

يا صاحبي،
إنَّ الله يُدبِّرُ الأمور بحكمةٍ ورحمةٍ لا تخطرُ على بالنا،
لأننا قاصرو النظر، ومحدودو التفكير، ولا نرى من المشهد إلا بقعةً يسيرة،

فأما اللّه فيرى كل شيء!

ولو كنتَ مع المساكين حين ثُقبتْ سفينتهم،

لربما قلتَ: ألا يكفي الفقر حتى نُصاب في مصدر رزقنا؟!

ولكنكَ لن تلبثَ طويلاً حتى ترى أسطول الملكِ الظالم يسلبُ الناس سفنهم،

فتدرك عندها رحمة اللّه،

وأن ثقباً في السفينة أرحم من فقدها،

سبحان من يبتلي بالصغيرة ليُنجي من الكبيرة!

يا صاحبي إذا ما تعلَّقَ الأمرُ باللّهِ فتأدَّبْ!

أنسيتَ من كان يسوقُ إليكَ رزقكَ وأنتَ جنينٌ في بطنِ أمكَ؟!

أنسيتَ من رقّقَ قلبها عليكَ رضيعاً،

فكانتْ تقوم لأجلكَ في الليل دون تأفّفٍ كأنها جارية تخدمُ مَلِكها؟!

أنسيتَ أباكَ كيف كان يقتطعُ لكَ رغيفاً من صخر الحياة لتكبر وتنمو ويشتدَّ عودك؟!

أما سألتَ من الذي جعلكَ قطعةً من قلبه، فكان على استعداد أن يقطع من لحمه ليطعمك

إنه اللّه!

الغنيُّ عنكَ ولكنه لا يزهدُ فيكَ

والقويُّ الذي لا يحتاجك ولكنه يُناديكَ

أنسيتَ كل هذا، ثم إذا أصابكَ من قدره ما لا تُحب بدأتَ تتذمرُ وتتأففُ!

اِنتظِرْ دورة الأيام، ستتكشفُ لكَ حُجب الغيب، وستعرف أنه ما أخذ منك إلا ليعطيكَ، وما أصابكَ إلا ليرممكَ، وما صرفكَ عن أمرٍ إلا لآخر هو خير لكَ منه!

والسّلام لقلبكَ

11

السّلام عليكَ يا صاحبي،

أعرفُ كم هو لذيذٌ أن تجدَ نهاية المطاف شخصًا على مقاس قلبكَ تماماً،
شخصٌ يكون صديقكَ عندما تحتاجُ إلى صديق،
وكتفكَ عندما تحتاج للاستناد،
وعكازًا عندما تحتاجُ للاتكاء،
شخصٌ تشعرُ معه بالأمان الذي لم تذقه من قبل،
يا صديقي، نحن لا نعرفُ قيمة ما كنا نفتقده إلا حين نعثر عليه!
شخصٌ لا تشكُّ للحظة أنه مكافأة نهاية العمر،
وتعويض عن كل ما قاسيته قبله،
بعضهم يأتون رائعين كأنهم رسالة اعتذار من الحياة عن كل ما فَعَلَته سابقاً بكَ!

ولكني بالمقابل يا صاحبي أعرفُ كم هو مؤلم أن لا يكون هذا الشخص لكَ،
وأن تمشي إليه بكل خليةٍ في جسدك،
وبكل نبضةٍ في قلبكَ،
وبكل ذرة هواء في رئتيكَ،
ثم تكتشفُ أنكَ لا تستطيعُ الوصول لأنَّ ثمة من سبقكَ إليه!

وتعرف أنَّ الذي حضرَ آخراً يبقى آخراً مهما حاول أن يتقدم!
وأنه أول من يُستغنى عنه،
مؤلم جداً أن يكون لكَ مكان في قلب أحدهم، ولكن ليس لكَ مكان في حياته!

يا صاحبي،
إنَّ من أشدَّ أنواع الابتلاء شخص يعيشُ في داخلكَ وهو ليس لكَ!
وأنتَ عالقٌ في المنتصف، لا تستطيعُ أن تستمر، ولا تستطيعُ أن تتوقف!
تتمسكُ به أحياناً بكل ما فيك من قوة، كأنكَ غريقٌ مُدَّتْ إليه يدٌ وهو في الرمقِ الأخير،
وتُقرر أن تُفلتَ يدكَ أحياناً، لأنكَ تعرفُ أن الذين عليه انتشالهم يأتون قبلكَ!
فلا أنتَ بالممسكِ ولا بالمُفلتِ،
عالقٌ في المنتصف،
تخشى على نفسكَ من الاستمرار معه،
وتخشى على نفسك أكثر من الاستمرار بدونه!

يا صاحبي،
تمرُّ بكَ لحظاتٌ تعرفُ أنه أقرب إليك من جلدكَ،
وتمرُّ لحظات أخرى تشعرُ أنكَ في كوكبٍ،
وهو على كوكب آخر لكثرة ما بينكما من عبادٍ وبلاد!

تعرفُ تماماً أن لا شخص يستطيعُ إسعادكَ كما يفعل،
ولا شخص يمكنه أن يُؤذيكَ كما يفعل!
اللحظة معه جنة، وبدونه جحيم!
ولكن الجنة لا تفتح أبوابها دائماً،
وعندما تُغلق بابها في وجهكَ فليس إلا النار بانتظارك،
ولِتذوق حلاوة هذه، عليك أن تذوق مرارة تلكَ!
وكلما تخطيتَ حاجزاً للوصول إليه، نبتَ لكَ ألفُ حاجزٍ جديد!

مؤلم يا صاحبي أن يكون العمر سباقَ حواجز،
عليكَ أن تركضَ إلى خط نهاية،
كلما أوشكتَ على الوصول إليه،
اكتشفتَ أنه خط وهمي وأن الخط الحقيقي بعيدٌ، بعيدٌ كثيراً!
توضأْ، وصلِّ ركعتين يا صاحبي، وضعْ يدكَ على قلبكَ، وقُلْ:
«فاللهمَّ هذا القلب بيدكَ،
لا تتركه هائماً لا إلى قرار ولا إلى استقرار،
بصِّره بالعلامات، وفهِّمه الإشارات،
ودُلَّه فأنتَ ربُّ التائهين وهو تائه!»

والسّلام لقلبكَ

12

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: ماذا ينقصني لأنافس الآخرين؟
فأقولُ لكَ: ومن قال أنه عليكَ أن تُنافس الآخرين؟!
الحياة رحلة وليست سِباقاً يا فتى، فاستمتع بها ولا تحوّلها إلى معركة!
المضمار الوحيد الذي يستحقُّ أن تُنافس فيه هو الطريق إلى الجنة!
ما عدا ذلك فمعارك خاسرة، وسباق إلى غير وُجهة،
السلحفاة والأرنب كلاهما أحمق،
فأي لذة في أن يفوز الأرنب بسباقٍ ضد أبطأ المخلوقات على الأرض؟!
ولِمَ على السلحفاة أن تخوض سباقاً أملها الوحيد بكسبه هو أن ينام الأرنب؟!

طهِّرْ قلبكَ يا صاحبي،
وافرحْ بنجاحِ غيركَ كأنه نجاحكَ،
وصفِّقْ للفائزين كأنكَ تُصفِّق لنفسكَ،
واسعَدْ بصفقة التاجر كأنها صفقتكَ،
وبوظيفة جارك كأنها وظيفتك،
النظر إلى ما في أيدي الناس سهم مسموم،

يُصيبك في قلبكَ قبل أن يُصيبَ الناس!

يا صاحبي،

إن كثيراً مما نسميه منافسة ما هو إلا حسدٌ مقنّع،

ولكن أسميناه منافسة لنقنع أنفسنا أنها معركة تستحقُّ أن نخوضها!

وتذكَّرْ جيداً، أن الحسد هو أول ذنبٍ عُصي الله سبحانه وتعالى به في السماء،

حيث رفضَ إبليسُ السجود لآدم، وما معه من ذريعة إلا: أنا خير منه!

والحسدُ أول ذنبٍ عُصي الله تعالى به في الأرض،

حيث قتلَ قابيل أخاه هابيل لأجل امرأةٍ كانت أجمل من امرأته!

فلا يكن فيكَ شيءٌ من إبليس وقابيل، ثم تقول لي أنا أخوض منافسة!

لا يا صاحبي أنتَ تحترقُ من الداخل لأن خيراً أصابَ غيركَ ولم يُصبكَ!

اعتنِ بقلبكَ يا صاحبي،

نظِّفه جيداً، طهِّره بالذكر،

سمِّ الله على كل جميلٍ تقعُ عليه عينك،

وقل ما شاء الله على كل رزقٍ ليس لكَ،

وارضَ بما قسم الله لكَ،

فلن تنال سواه ولو كانت حياتك كلها سِباقاً،

والسّلام لقلبكَ

13

السّلام عليكَ يا صاحبي،

عندما كنتُ صغيراً أضعتُ كُرتي الحمراء، وبحثتُ عنها ولكن دون جدوى،
فقالتْ لي جدتي رحمها الله قُلْ:
اللهم جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني بضالتي!
فقلتها، ووجدتُ كُرتي!
كبرتُ الآن يا صاحبي،
وعرفتُ أن ثمة أشياء فقدها يفطرُ القلب أكثر من كرة حمراء!
وها أنا الليلة أضعُ يدي على قلبي وأقول:
اللهم جامعَ الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني بضالتي!
ومن فرط غربتي، وفقد الأحبة غُربة، أقول:
اللهم اجمعني بي!
من فرط الحُب يُصبح أحدهم نحن!

هوِّنْ عليكَ يا صاحبي،
الغائب سيعودُ يوماً بإذن الله،
تذكَّرْ جيداً كيف عاد موسى عليه السّلام إلى أمه،
وكيف رتَّب الله سبحانه أحداث الكون كلها ليعيده إليها،
جعلَ النهر ساعي بريد ليوصله إلى فرعون،
ورقّقَ قلبَ آسيا عليه لتمنعه من ذبحه،

وحرَّم عليه المراضع،
وها أنا الآن أفتقدك،
وأكاد كأم موسى أُبدي بكَ،
ولكن اللّه يربطُ على قلبي فأتماسكَ،
وكلي يقينٌ بأنكَ عائدٌ إليَّ ذاتَ يومٍ بإذن اللّه!

لا تبتئس يا صاحبي،
الأحبة يلتقون في النهاية!
تذكَّر فراق يعقوب ويوسف عليهما السّلام،
حشد مهول عمل على ذلك الفراق،
أخوة غلاظ شِداد قُساة،
وسيَّارة يبيعون الحُرَّ عبداً في السوق،
وعزيز مصر يشتريه،
وزوجته تلقيه في غياهب السجن،
ثم تبدأ نقطة التّحوّل برؤيا يراها الملك،
فيخرجُ يوسف من السجن،
ثم يصبح عزيز مصر،
ثم يجمع اللّه الشتيتين!
برؤيا فقط كانت نقطة التحول!
فلا تنسَ رؤايَ بك،
وتذكرني دوماً أمسحُ على رأسك وأرتِّل واقعاً كما في المنام!

لا عليك يا صاحبي،

ليست المسافات هي التي تُقرِّب أو تُباعد بين الناس،

القلوب هي التي تفعل!

وأنتَ أقربُ من وريدي إليَّ، وإن نأتْ بنا المسافات!

كثير من اليقين بالله يا صاحبي،

قليل من السعي الذي لا بُد منه،

ولو استغنى أحد عن السعي،

لاستغنت عنه مريم وهي في قمة ضعفها،

ولكن قد قيل لها ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾

وها أنا الليلة أمسحُ على رأسك، وأقول لك: وَهُزّي إِلَيْكِ

والسّلام لقلبكَ

14

السّلام عليكَ يا صاحبي،

أعرفُ أنَّ كل كلام المواساة ليس بإمكانه أن يسدَّ ثقباً واحداً في القلب،
فكيفَ بقلبكَ المليء بالثقوب كأنه غربالٍ؟!
من كلِّ ثقبٍ تسلّل حبيب ومضى!
أنتَ المحكوم بفقد أحبابك،
جرِّبْ إذا أحببتَ أحداً في المرة القادمة أن لا تُحبَّه، لعلَّه يبقى!

ثمة مواقف تُصبحُ فيها كل كلمات العزاء باردة،
وكل كلمات المواساة جوفاء!
عندما ماتتْ خديجة بنت خويلد ضاقتْ الدنيا بالنَّبيِّ ﷺ،
ولأنَّ الله يعلمُ أي وجعٍ في أن يفقدَ رجلٌ حبيبته،
كانت حادثة الإسراء والمعراج،
أخذه ربه إلى السماء ليعزّيه بها،
أحياناً لا تصلحُ الأرض كلها لتكون عزاءً!

يا صاحبي، كان النبيُّ ﷺ يُعزِّي أصحابه بالجنة!
تذكّر حين رأى الصحابة ثياباً من حرير فأُعجبوا بها،
فقال لهم ﷺ: لَمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها!

وقُطعت ذراعا جعفرٍ في مُؤتة،
فقال ﷺ: لقد أبدله اللّه بهما جناحين يطير بهما في الجنَّة!
وإذا فقد أحد ابناً صغيراً له، عزَّاه ﷺ،
وأخبره أنه في الجنة في كفالة إبراهيم عليه السّلام وسارة!

فلتكُنْ الجنة عزاؤكَ يا صاحبي،
فالجنة هي الفوز الذي يجعل كل الخسارات السابقة تافهة،
والنار هي الخسارة التي تجعل كل الانتصارات السابقة تافهة!
فإن خسرتَ في الدنيا معركتكَ،
فشمِّر ففي الجنة عزاءٌ يُرمّم شرخاً في قلبك!

في الجنَّة،
لا أحبة يرحلون،
أحبابكَ معكَ ولكَ وعندكَ،
لستَ مضطراً لتقاتل بكل خلية فيك لتكسب معركة الحفاظ عليهم!

في الجنة،
لا يأتي أحدهم إلى حياتك،
ومن فرط حبك له تشعرُ كأنه قد نفثَ فيك الروح،
ثم إذا ما أحببت، وغازلتَ، وهِمتَ، وجُننتَ،
جاءك مودعاً، وتركك جثةً هامدة لا تصلح لغيره!

في الجنة،

لن تغارَ، ولن تبكي،

ولن تضربَ رأسكَ بالجدار من فرط عجزك عن الوصول لشيء أردته بكل ما فيك،

كل ما تهواه فهو لك!

في الجنة،

لا قوانين تردع، ولا ضمير يُحاسب، لا ممنوعات، ولا عراقيل،

على سجيتك ستكون،

كل ما تريد أن تفعله تُباشر به دون تفكير،

تماماً كما الطفل الذي بدأ يحبو في الدنيا لا يعبأ بأحد!

في الجنة،

لا وجع، ولا سهر،

لا نار تشبُّ في صدركَ، ولا برد ينخر في عظمك،

سليماً معافىً لا يمسك سوء!

في الجنة،

لا يوجد عيون محمرة من كثرة البكاء،

ولا أجفانٌ متهدلة من كثرة السهر،

لا تجاعيد، ولا شيب،

لا انحناء في الظهر، ولا وهن في العظم،

تخيَّل مقدار الراحة هناك، فتعزَّ يا صاحبي!

في الجنة،

لقاء أحبةٍ ماتوا وتركوكَ،

وجمعاً بآخرين أحببتهم فبخلت بهم الدنيا عليكَ،

في الجنة لهم فيها ما تشتهي أنفسهم!

في الجنة،

رفقة حلوة: الأنبياء والصديقون، وأبو بكر وعمر،

وآسيا بنت مزاحم ومريم بنت عمران،

كل هؤلاء الذين كنا نتعزى بهم سنلتقيهم بإذن الله هناك!

في الجنة،

نظر إلى وجه الله الكريم،

تخيَّل المشهد يا صاحبي،

مجرد أن تتخيله يهون عندكَ بعض الذي تجد!

فاللهمَّ جنتكَ

والسّلام لقلبكَ

15

السّلام عليكَ يا صاحبي،

كنتُ البارحة أقرأ في سير أعلام النُّبلاء،
وما زالتْ كلماتُ عبد اللّه بن المبارك عن الإمام مالك ترِنُّ في أُذني حتى اليوم،
قال:
«ما رأيتُ رجلاً ارتفعَ كمالك بن أنس،
ليس له كثير صيامٍ ولا صلاة، وإنما كانتْ له سريرة!»

يا صاحبي،
عندما كتبَ مالكٌ الموطأ قالوا له:
ما حاجة الناس إليه وكتب الحديث كثيرة؟
فقال: ما كان للّهِ يبقى!
وكان مالكٌ كلّه للّه، وبقيَ الموطأ!

يا صاحبي،
ليس شيءٌ أحبّ إلى اللّه من خبيئة صالحة،
يجعلها العبدُ بينه وبين ربّه!
لا تطّلعُ عليها الأعين لتمدحها،
ولا تسمعها الأذن لتثني عليها،
تفعلها وليس في نيتك إلا اللّه،
واثقاً أنه لا يضيعُ شيء عنده!

صدقةٌ دائمة لا ترصدها الكاميرات،
وركعات في الليل وأهل بيتكَ يحسبونكَ نائماً،
ديونٌ تُسددها عن الغارمين في الدكاكين دون أن تعرفهم ويعرفوك،
كفالة يتيم لن يعرفَ من كفله إلا يوم القيامة!

يا صاحبي،
تأمّل قول مالك: «ما كان للّه يبقى!»
منشورٌ تكتبه حباً للّهِ، ودفاعاً عن دينه،
يُسخِّرُ اللّه لكَ آلاف الناس ليحملوه عنكَ، ويبلغوه،
يلفُّ الكرة الأرضية، وأنتَ جالس في بيتك!

كتابٌ تؤلفه وليس في خاطركَ إلا اللّه،
وأن يجعله سبحانه سبباً لعودة تائب،
ومواساةً لمحزون، وتربيتة على كتف مكسور، وهدايةً لحيران!
تموتُ أنتَ ويبقيه اللّه لكَ!

شجرةً تزرعها للّهِ يبقيها اللّه لكَ واقفة كالجبل،
ويطرحُ لكَ فيها البركة،
ويسوقُ إليها الناس سوقاً ليعطيكَ الأجر،
وما كانت يوماً إلا نبتةً صغيرة، ولكن لأنها للّه بقيت!

بئر تحفره للّه،
قد يكون جزاؤه شربة من يد النبي ﷺ،

لا أحد أوفى من اللّه!

دار تحفيظٍ تُنفقُ عليها،
أنت الذي لم تُسعفكَ ذاكرتك لتحفظ،
يُسخّر اللّه لكَ من يحفظ فيه،
وتكتبُ الملائكة في صحيفتك أجرهم جميعاً!

ما كان للّه يبقى،
من كان يظنُّ أن يُباع رياض الصالحين في مكتبات باريس ولندن،
ولكن اللّه اطلع على قلب الإمام النووي فارتضاه، فأحيا له كتابه!

وليس من فراغٍ أن تتعلق القلوب بمدارج السالكين،
فمن قبل تعلقٍ قلب ابن القيم باللّه!

ولا غرابة أن يموت إبن الجوزي ويبقى كتابه صيد الخاطر،
فمن كان للّهِ كان اللّه له!

كان الإمام أحمد يدعو: اللهم أمتني ولا يعرفني أحد من خلقكَ!
وحين اطلع اللّه على قلبه،
ورآه لا يريدُ الشهرة، أماته ولا يجهله أحد من الناس،
يا صاحبي، تذكّر دومًا : ما كان للّه يبقى!

والسّلام لقلبكَ

16

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: ما يفعلُ من زُفَّتْ حبيبته إلى غيره؟
فأقولُ لكَ: أولاً أسأل الله أن يربطَ على قلبكَ،
فليس هناك عملية جراحية أكثر ألماً في الكون
من أن يستأصلوا قطعةً من قلب رجلٍ
وهو ينظرُ إليهم دون بنجٍ حتى!

يا صاحبي،
قال الإمام القشيري في تفسير قول ربنا على لسان سليمان عليه السّلام: «لأعذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه»
العذاب الشديد هو أن يُفرِّق بينه وبين من يُحب، فإنَّ فقد الأحبة غربة!

تحتاجُ أن تتخففَ من مشاعركَ يا صاحبي،
أُنفُثْ هذا البركان المشتعل في صدرك،
أطفىء هذه النار المستعرة في قلبك،
صلِّ، صلِّ كثيراً، وسبِّحْ، واستغفِرْ!
اِبتكِرْ طريقةً مجنونة لتريح نفسك،
كأن تكتبَ رسالةً إلى زوجها دون أن ترسلها له،
صدقني سيساعدكَ الأمر ولو قليلاً!

قُلْ له: لا تدعها تنامُ ليلةً وفي عينيها دمعة، فهذا يُتعبها كثيراً،
تؤلمها معدتها حين تحزن، وتتلوى من الألم، وتتوقف عن تناول الطعام!
فتحايل عليها لتضحك،
ولو اقتضى الأمر أن تعتذرَ لها رغم أنها المخطئة فلا تتردد،
المهم أن لا تتركها تنام حزينة!

قُلْ له: لا تخدعنَّكَ بهذه القسوة التي تبدو عليها،
هي طيبة من الداخل، عذبةٌ جداً، ورقيقة بشكل مفرط!
من لا يعرفها يحسبُ أنَّ فيها شيئاً من التناحة وبياسة الرأس،
ولكن من يعرفها جيداً، يعرفُ أنها طفلة كبيرة،
تُعطيكَ الدنيا كلها إذا أشعرتها بحنانك،
إنها تُمتلكُ من قلبها، من قلبها فقط،
فدع عنكَ قسوتكَ،
القسوة معها لا تجدي،
القسوة تُخرج تلكَ المحاربة العنيدة الكامنة فيها،
وباللين تجدها أنعمُ وأرقُّ من وردة!

قُلْ له إنها تحبُّ الاهتمام، فانتبه لها جيداً،
يُسعدها أن تصبَّ لها القهوة في فنجانها، الفنجان الثاني خصوصاً!
وأن تطعمها لقمةً بيدك، وأن تنتبه لخدشٍ صغير في يدها فتسألها عنه،

وإيـاكَ أن تُشـيح بوجهـكَ عنهـا وهــي تُحدّثـك، فهـذا يزعجهـا كثيـراً،

أُنظـرْ إليهـا باهتمـام وهــي تُكلمـك، ثمـة كلام كثيرتقولـه بعينيهـا دون أن تقولـه بلسـانها،

عندما تعرفها جيداً ستفهمُ هذه النقطة جيداً!

سـلها كيـف كان يومهـا، مـاذا أكلـتْ، وأيـن ذهبـتْ، ومـاذا تريـدُ أن تفعل ببقيـة يومهـا،

وعندما تحدثكَ عن مشاكل عملها اصغِ،

إنها لا تُحملكَ مشاكلها،

صدقني هي أقوى مني ومنك، ولكنها طريقتها في أن تتخفف!

قُلْ له كُنْ ذكياً وأنت تتعامل معها،

انتبه جيداً للأشياء التي تنقصها واحضِرها لها دون أن تطلب،

فهـي عزيـزة نفـس، لـو ماتـت عطشـاً لـن تطلـب منـكَ كـوب مـاءٍ تحملـه بيـدك،

ولكن يسعدها جداً أن تسقيها أنتَ،

إنهـا لا تهتـم بالحصـول علـى الأشـياء بقـدر مـا تهتـم بطريقـة الحصـول عليهـا!

قُلْ له عندما تراها حزينةً لا تُكلمها، ولا تواسِها،

تمرُّ بها لحظات لا تسمعكَ ولو صرختَ في أذنها،

عانقها فقط، ستجدها قد بكتْ بسرعة، فإن بكتْ فعلاً، فاعلم أنها تثقُ بكَ،

فهي يحرجها أن تبدو ضعيفة،

ولكن متى أحبّتكَ، فستبقى تُخزّن دموعها حتى تراكَ لتعانقكَ وتبكي!

قُلْ له ثِقْ بها كثيراً،

فهي كتفٌ متين للاتكاء، ومستودع أمين للأسرار،

لا تُفلِتُ يدها بسهولة، ولا تبوحُ بما أمّنتها عليه، لا تبوح أبداً،

دبلوماسية من الطرازالأول، لبِقةٌ كأنها كتاب في فن الأتيكيت،

تُراعي المشاعر، وتجبر الخواطر، وتبتسمُ في أشدِّ لحظات غيرتها،

لأنها لا تريدُ لكَ أن تحزن،

نبيلة إلى درجة تُقدِّم من تُحب على نفسها، ويا لحظ من تُحبه!

قُلْ له لا تخدعنَّكَ هذه المتناقضات التي قد تراها للوهلة الأولى

إذا أعجبتكَ رقتها، فلا تنسَ تلك الشرسة الكامنة فيها!

وإذا أخافتكَ شراستها، فلا تنسَ تلك الرقيقة التي تكونها عندما ترضى،

نسيتُ أن أخبركَ، أنها لا ترضى سريعاً، هذا طبعها،

عليكَ أن تحاول أكثر من مرة، وهي واللّهِ تستحق!

إذا رأيتها غارقة في عملها، فلا تقل لا قلبَ لها،
هي تحب أن تنجح، وأن تكون فخورة بنفسها،
تكره الاعتماد على الآخرين، ويوجعها أن تعتمدَ على أحد،
ولكنها حين تُحبّ، حين تُحبّ فعلاً، فلا تشبهها بقلبها امرأة أخرى في هذا العالم!

جرِّبْ هذا يا صاحبي لعلّه ينفع،
وإن لم ينفع، فأنتَ لم تخسر شيئاً،
ثمة خسارات تبدو بعدها كل الخسارات الأخرى مجرد هزائم تافهة،
وأي خسارة أكبر من أن يخسر رجل المرأة التي يحب!

هو قدر الله يا صاحبي، فتأدَّبْ!
توجَّعْ بالحمدِ، وتصبَّرْ بحسبي الله ونعم الوكيل،
فما فاتكَ لم يُخلق لكَ، وما خُلق لكَ لن يفوتكَ،
رُفعت الأقلام وجفت الصحف،
﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

والسّلام لقلبكَ

17

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: لمن يهرعُ المرءُ أولاً؟!

فأقولُ لكَ: لمن يُحِبُّ!

ألمْ ترَ كيفَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ عندما نزلَ عليه الوحي، وأصابه البَردُ والخوف،

لم يذهب إلى صديقه الوفي أبي بكر،

ولا إلى عمه الشجاع حمزة،

ولا إلى عمه الحكيم أبي طالب

وإنما هرعَ إلى خديجة!

يا صاحبي، إنَّ الذي تُحبه أكثر، هو من تهرعُ إليه أولاً!

الحُبُّ ملاذنا الآمن، وحضن الحبيب على ضيقه أكثر الأماكن اتساعاً على ظهر الأرض!

وإنكَ لن تعرفَ معنى الأمن إلا في مكانين: سجادة صلاتكَ، وصدرُ حبيبكَ!

أحببتُ امرأةً كما لم أُحبَّ أحداً من قبل، وكما لن أُحبَّ أحداً من بعد،

ومازحتها مرَّةً قائلاً: أنتِ أجمل قطعةٍ مني، تماماً كالحجرِ الأسود من الكعبة!

وكنتُ كلما حزنتُ أتيتها،

فداعبتْ شعري بأصابعها،

فذهبَ عني الذي أجد،

صدقني تكفي خمسة أصابع لتعالجكَ،

الحبيبُ لا يمسحُ على رأسكَ بيده وإنما بقلبه!

وكنتُ كلما فرحتُ أتيتها،

لا أشعرُ أنَّ الفرح سيكون فرحاً حقاً إلا إذا شاركتها إياه!

وكنتُ كلما رأيتها حزينةً،

أتفنّنُ، وأحتالُ، وأُغازلُ حتى تضحك!

فإذا ضحكتْ قلتُ لها:

الغمازة الصغيرة التي ترتسمُ على خدكِ حين تبتسمين كعلامتي تنصيصٍ،

هي أجمل اقتباسٍ في العالم!

ونسيتُ أن أقول لها أن غمازتيكِ ليستا تجعيداً طفيفاً يحدثُ لحظة،

إنهما فلقتي قمر!

والسّلام لقلبكَ

18

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ها أنتَ الآن منهكٌ مجدداً،
حتى أنكَ عاجزٌ عن النومِ رغم شدَّة التعب،
تدور في رأسكَ ألف فكرةٍ،
حتى ليُخيّل إليكَ أنَّ العالم الذي في رأسكَ أكبرُ من العالم الذي رأسكَ فيه!

وحيدٌ رغم كل هذا الزّحام حولكَ!
كلهم يرون صلابتكَ،
تلكَ القشرة السميكة التي تُغلفُ بها نفسكَ،
كثمرة الجوز، صلبة جداً من الخارج، ولكنها من الداخل هشَّة!
لا أحد منهم يرى هذه الهشاشة التي أنتَ فيها!

كلهم يرون ابتسامتكَ،
تلك التي تعلو محيَّاكَ دوماً،
ولا أحد منهم يعلمُ أنك تنتظرُ أن تنفرد بنفسكَ لتبكي!

كلهم يستندون عليكَ،
هكذا عودتهم أنتَ،
أن تكون كتفهم وعكازهم،

ولكن كيف تخبرهم أن حتى الأقوياء تمرُّ بهم لحظات ضعفٍ ويحتاجون من يسندهم أيضاً؟

ولكنكَ لا تجرؤ أن تبوح بضعفك،

لا يمكن للشجرة أن تقول: أريدُ أن أستلقي قليلاً لقد تعبتُ من الوقوف!

لا عليكَ يا صاحبي، لا عليكَ،

هذا هو قدرك، أن تكون كالشمعة التي تحرقُ نفسها لتضيء للآخرين!

اُثبتْ فلعلَّ في ثباتكَ ثباتاً لكثيرين يتعزون بكَ، ولو مِلتَ لمالوا!

أعلمُ أنك تعبتَ،

ولكنكَ لا تملكُ رفاهية أن تستريح قليلاً،

الجنود لا يستلقون أثناء المعركة وإن أنهكهم التعب!

والآن قِفْ هُنيهةً، وأعِرْني قلبكَ قليلاً يا صاحبي!

ألمْ تقل لي يوماً: الناس في هذه الحياة لا يمشون إلا في دروب أقدارهم!

فلا تقتلْ نفسكَ بكثرة التفكير، ولا تشغل قلبكَ بما ليس لكَ يدٌ فيه!

أمر اللهِ نافذٌ لا محالة، مهما بدت لك الطرق عسيرة، والأبواب مغلقة!

ليس لكَ إلا السَّعي، وليس عليكَ إلا أن تمشي، أما متى تصل، كيفَ، وأين؟

فهذا غيبٌ لا يعلمه إلا اللّه!

شيءٌ واحدٌ لا تنسَه يا صديقي،
بعضِ المسؤوليات اصطفاء!
واللّه لا يستخدمُ في سبيله إلا من كان نقياً!
نحن لا نستخدم أداةً متسخة لننجز عملاً ما،
هذا ونحن بشر، فكيف باللّه وهو اللّه؟!
ما دام قد استخدمكَ فقد نظر إلى قلبكَ، فارتضاه،
فأي شيءً بعدها يمكن أن يُكدّركَ؟!
المعركة صعبة يا صاحبي،
أعلمُ هذا جيداً، ولكن ألم يخطر لكَ ولو من باب المواساة،
أن اللّه لا يعطي أصعب المعارك إلا لأقوى جنوده؟!

والسّلام لقلبكَ

19

السّلام عليكَ يا صاحبي،

شيءٌ ما في جسدكَ يقولُ أنكَ لستَ بخيرٍ،
وأنكَ تحتاجُ إلى دواءٍ، ولكنه لا يُشبه ذلكَ الذي يُباع في الصيدليات!
تُعاني نقصاً في العِناق، ولم يُعبِّئوا الأحضان في قوارير بعد!

تريدُ أن تشُمَّ رائحة حبيبك البعيد،
تلك الرائحة الكفيلة بأن تجعلكَ تتماثل للشفاء،
تخافُ أن تُخبر بها الصيادلة فيحسبونكَ مجنوناً،
أو لعلكَ تخشى أن يقولوا لكَ: عندنا بديلٌ
فتقولُ لهم: يا خسارة علمكم، صدقوني لا يوجدُ بديل!

تحتاجُ غسولاً لقلبكَ،
هذه الدنيا تلوثنا يا صاحبي،
مهما قاتلنا لنُحافظ على نقاء قلوبنا، تعلقُ فيها أشياء،
فالثوب الأبيض أسرع للاتساخ من غيره،
وهكذا القلوب البيضاء، أي لوثةٍ تتركُ أثراً عليها!

تحتاجُ كتفاً تتكىء عليه،
ذلك الأمان الذي لا يستطيعُ الأطباء كتابته في وصفة،

ولا يستطيعُ الصيادلة العثور عليه في رفوفهم مهما كان الخط واضحاً!

كَتِفٌ! أرأيتَ يا صاحبي،

ها هي كلمة واحدة، من ثلاثة حروف، ومكتوبة بخطٍ واضحٍ،

ولكن يا لندرة الأكتاف الصالحة للاتكاء، وكأنكَ تطلبُ بيضةَ ديك!

تحتاجُ شراباً للنسيان،

أنتَ الذي تمضي نهاركَ شاغلاً نفسكَ كي لا تحِنَّ ولا تشتاق!

ثم حين تأوي إلى قلبكَ آخر الليل،

وتستفردَ فيك أشواقك، ويستبدُّ بكَ الحنين،

تأخذُ ملعقةً وتنامُ،

ليل المشتاقين طويل يا صاحبي،

فلا ينام من كان في صدره فجوة لا يملأها إلا رأس واحد!

تحتاج قارورة دموعٍ صغيرة تسكبها في عينيكَ حين تريدُ أن تبكي ولا تستطيعُ،

يحدثُ يا صاحبي أن تنزَّ الدموع من كلِّ خليةٍ فيك إلا من عينيك!

ولا شيء يريحُ المرء مثل أن يبكي، ولكنه أحياناً لا يستطيع!

تحتاجُ ضماداً لكل الجروح التي لا يراها الناس،

تلكَ الجروح الغائرة التي تتحسسها وحدكَ بين لحظةٍ وأخرى،

تمـرُّ عليـكَ لحظـاتٌ تعتقـدُ فيهـا أنـكَ شُـفيتَ مـن كثـرة مـا تناسيتَ،

ولكن مـا إن تخلـو بنفسـكَ، سـتتفقدُ جرحـكَ لتجـده مـا زال رطبـاً ونازفاً،

أوجعُ الجروح يا صاحبي هي التي تكون في الروح!

والسّلام لقلبكَ

20

السَّلام عليكَ يا صاحبي،

أمضى القسيس الكاثوليكي الفرنسي «شارل دوفوكو»
أحد عشر عاماً في الصحراء الكبرى بين قبائل الطوارق،
مبشراً وداعياً إلى النصرانية،
ومحاولاً أن يثنيهم عن دينهم،
وقدَّم خلال هذه السنوات معوناتٍ ومساعداتٍ وإغاثاتٍ كثيرة،
ولكنه لم يستطِعْ أن يُقنع طارقياً واحداً بترك الإسلام!
حتى العجوز التي كانت تخدمه نظير راتب كبير،
قالتْ له يوماً:
أنتَ رجلٌ طيب يا سيد شارل،
ومن الخسارة أن تموتَ كافراً!

والشيءُ بالشيءِ يُذكر يا صاحبي،
جاءت جماعةٌ تبشيرية إلى إحدى قُرى صعيد مصر،
وألقتْ رحلها هناك لعامين،
بنوا فيها للناس مستوصفاً ومدرسةً،
واشتروا لهم الكثير من الثياب، وقدموا لهم الهدايا،
وكانوا بطبيعة الحال يدسّون شيئاً من السُّمِ في العسل!

ثم ارتأى القسيس الأكبر أن يجمع الناس إلى حفلٍ كبير،
علَّه يصطاد الناس دفعةً واحدةً!
اعتلى المنصة، وأراد أن يبدأ حديثه،
ولكن الفلاحين بطبيعتهم البسيطة التي اعتادوا عليهم،
كانوا يتحدثون فيما بينهم دون إصغاء،
فحاول أن يلفتَ انتباههم، ولكن دون جدوى!
عندها قال له عمدة القرية بلغته الصعيدية الحُلوة: مش كدة حضرتك!
ثم قام ،وقال لهم بأعلى صوته: صلُّوا على رسول الله،
فقالوا بصوتٍ واحدٍ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وآل محمد!
وعمَّ الصمتُ، وخيَّمَ الهدوء،
ولكن القسيس نزل عن المنصة لأنه عرف أن الكلام لن يجدي!

يا صاحبي،
عجيب هذا الدين، واللهِ عجيب!
متى خالطتْ بشاشته كيان المرءِ،
ملأته طمأنينةً في القلب، وراحةً في العقل،
حتى لتجد أن الأُميَّ الذي لا يعرف كيف يفكّ الحرف،
لا يستطيع الفلاسفة كلهم أن يُزعزعوا إيمانه قيد أُنملة،
بينما تجد فلاسفة العالم، ومنظّريه، ومفكريه، تملأهم الشكوك،
حتى أن أحدهم ليؤمن صباحاً، ويرتدَّ مساءً،
يسيرون من غير هُدىً، كالأعمى الذي يتحسسُ طريقه،

فيقع مرَّةً، ويقوم مرَّةً!
ذاك أنَّ المعرفة شيءٌ، والإيمان شيءٌ آخر!

يا صاحبي،
لقد زرع النَّبيُّ ﷺ بذرةً تنمو داخل القلب،
تتشعبُ، وتنشرُ، فتملأُ المرءَ إيماناً عجيباً، وتسليماً رهيباً،
وطمأنينة ليست لأحدٍ من سكان هذا العالم غير أتباع هذا الدين!

إنكَ لترى الشيخ المتهالكَ يتكئ على عكازه ويسير إلى المسجد بتُؤدة،
مسير من يعرف أنه يمشي إلى وجهته الآمنة!
ليس السيرُ بالأقدام يا صاحبي ولكنه بالقلوب،
وليس غيرنا له هذا المسير الباذخ!

وإنك لترى العجوز على سجادة صلاتها،
رافعةً يديها إلى السماء تلهجُ بالدعاء بيقين،
لهجَ من يعرفُ أن ليس غير الله يُسأل!
وإنك لترى فاقد الحبيب بموت حارَّ الدَّمعِ بارد القلب،
يعرفُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه،
فتودُّ لو تعزيه، فتجده جبلاً لا يحتاج إلى عزاء،
إلا بالقدر الذي يأنسُ به النَّاسُ بالنَّاس!

وإنك لتجد المؤمن الذي لا يكاد يجد قوت يومه،
فتسأله عن حاله،
فيطالعكَ بأبلغِ عباراتِ الحمدِ،
ولو لم تكن تعرفه لحسبتَ أنَّ له مال قارون!
ليس غير الإيمان يجعلُ من الناس ناس!

يا صاحبي،
من ذاق من الإيمان مَذْقةً واحدة،
ما زعزعتْ إيمانه شكوك الدنيا كلها!

حدَّثني شيخٌ درستُ الفقه على يديه،
عن قصةٍ حقيقة فيها شيء من الطُرفة، وكثير من اليقين!
في سبعينيات القرن الماضي عاد طالب إلى قريته
قادماً من الاتحاد السوفيتي بعد سنوات طويلة من دراسة الطب،
تعلَّمَ فيها كيف يعملُ جسم الإنسان بهذا الاتقان،
ولكنه صار شيوعياً ملحداً ينكرُ أن لهذا الجسم خالقاً!
وأنه بعد قدومه بأيام خرج يتمشَّى في القرية،
فصادف راعياً كبيراً في السِّن،
فأخذ يُحدثه، ويسأله عن حاله،
فقال الراعي: الحمد لله
فقال له: لا يوجد شيء اسمه الله،
هذه مجرد خرافات حشوا بها عقولنا ونحن صغار!

لم يجد الراعي رداً غير أن قال: اللّه يا رجل، اللّه!
فقال له الطبيب: هل تستطيع أن تُثبت لي وجود اللّه عملياً؟
فما كان من الراعي إلا أن انهال عليه بالضرب بعصاه الغليظة،
فقال له متوجعاً والعصا تنهال عليه: «منشان اللّه خلص!»
فقال له الراعي: «منشان اللّه!»
لقد أثبتُ لكَ وجود اللّه عملياً!

والسلام لقلبك

21

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: ما أروعُ إحساسٍ في الحُبِّ؟
فأقولُ لكَ: الأمان!
أن تشعرَ أن أحدهم ممسك بقلبكَ لا بيدكَ!

الأمان هو أن تمنحَ أحدهم القدرة على تدميرك، وكلكَ يقين بأنه لن يرميكَ ولو بوردة!
وأنه مهما حدث بينكما فسيبقى يخشى عليكَ من أن تجرحكَ نسمة!
وأنه رغم كل المعارك الضارية التي قد تنشأ بينكما فإنكَ لن تهون عنده!

الأمان هو أن تأخذ أحدهم إلى أعمق نقطةٍ فيك،
فتصبحَ مكشوفاً أمامه كصفحةٍ في كتاب،
وأنتَ واثقٌ تماماً أنه سيحفظ سرَّكَ كما يحفظُ عينيه!

الأمان هو أن تُطلع أحدهم على نقاط ضعفكَ،
وتخلعُ عنكَ هذا الدرع السميك الذي تحيطُ به نفسكَ كي لا تصيبكَ الحياة في مقتلٍ،
وكلكَ إيمانٌ به أنه لن يضغطَ على نقطة ضعفكَ،

ولن يضع إصبعه على موضع جرحكَ،
وأن هشاشتكَ كلها ستبقى قوية بستره لكَ!

الأمانُ هو أن تبوحَ لأحدهم وأنتَ لا تخشى يوماً أن يستخدم هذا البوح ضدَّكَ!
وأن تعطيه يدكَ وكلكَ يقين بأنه لن يُفلتها!
وأن تتحدَّثَ معه وكأنَّكَ تتحدثُ مع نفسكَ،
فلا تُرهق نفسكَ بجهد التبرير، ولا تتكلف عناء الشَّرح،
لأنكَ تعرفُ أنه سيفهمُكَ بطريقة صحيحة،
وأنه لو خانكَ تعبيركَ فلن يخونكَ فهمه لكَ،
وأنكَ لو أفسدتَ مفرداتكَ سيصلحُ هو نِيَّته!
وأن تبكي على كتفه دون أن تتحرجَ من ضعفكَ!
وأن تأوي إلى صدره منكسراً
وكل شيءٍ فيكَ يعلمُ أنه سيرممكَ!
وأن تعيشَ مشاعركَ كما هي،
تضجرُ، وتغضبُ، وتغار، وتنطوي،
وأنتَ تعرفُ أنه سيحبكَ بكل أحوالكَ!

والسّلام لقلبكَ

22

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ألقوا الأمر على كاهلكَ مرَّةً أخرى، وقالوا: أنتَ لها!
أنتَ الذي تعرفُ أنك بالكاد تصلحُ لقيادة نفسكَ،
تسأل الآن: كيف أقودُ النَّاس!
يشهدُ الله أنكَ ما سعيتَ،
ولم تكُنْ راغباً،
كنتَ دوماً ترى المسؤولية تكليفاً لا تشريفاً،
وأن القائد خادمٌ لا سيِّد!
ولكن على ما يبدو أن قدر الإنسان أن يُكبَّل بالأغلال التي يُحاول أن يفكَّ نفسه منها،
يا صاحبي إنَّ ما تهربُ منه يتبعُكَ!

الجميعُ يُهنِّئكَ، بينما أنتَ تبحثُ عمَّن يُعزيكَ!
الأمانة ثقيلة يا صاحبي،
عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فرفضنَ أن يحملنها، ثم ها أنتَ تحملها،
يا لكَ من ظلومٍ جهولٍ!

تُحاولُ أن تُعزي نفسكَ بنفسكَ،

تتذكرُ قولكَ القديم بأن اللّه لا يضعُ ثماراً على غصنٍ لا يستطيعُ حملها،

فما دامَ قد حمَّلكَ هذا الأمر فأنتَ تستطيع،

لا تجِد الآن عزاءً غير: إنَّ اللّه إذا كلَّفَ أعانَ!

وفي دعاء عمر بن الخطاب عزاءٌ لكَ أيضاً:

اللهمَّ إني لا أسألك خِفَّة الحِمل، ولكن قوَّة الظهر،

فتدعو على طريقة الفاروق الأثير على قلبك،

يا اللّه، أنتَ صاحب الأمر، وأنا ليس لي من الأمر شيء!

أبرأ من حولي وقوتي إلى حولكَ وقوَّتك،

أنا التائه إن لم تدلَّني،

والحيران إن لم ترشدني،

والقاسي إن لم تُليِّني،

فكُن معي، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ،

فإنكَ إن خلَّيتَ بيني وبين نفسي أهلكتها وأهلكتُ الناس!

ثم تعالَ إلى هنا، اِجلسْ واسمع مني أُحدِّثك،

ما المرءُ دون قضية يا صاحبي؟

إن قيمتنا الحقيقية بقدر ما نلتزم لا بقدر ما نتخلى!

التخلي سهل، يجيده الجميع، ويحترفه الجبناء،

التمسُّك هو الصّعب، ولكن في الصعب قيمتك،

ثم لِمَ تستصعبُ الأمر، ليسَ عليكَ إلا المسير!

فإن متَّ فقد قدمتَ عذركَ إلى اللّٰه،

لا شيء أنبل من أن يموت المرءُ في سبيل قضية يُؤمن بها!

وإن بقيتَ فإن حلاوة الوصول سترمم كل تعبٍ،

فتشبَّثْ بيديكَ ونواجذك ولحمكَ وعصبكَ

والسّلام لقلبكَ

23

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقولُ لي: يمضي العمرُ وليس لي إنجازاتٌ تُذكر،
فأقولُ لكَ: ومن قال لكَ أن الإنجازات يجب أن تكون خارقة؟!

ليستْ الإنجازات يا صاحبي هي فقط تلكَ التي تُدوَّنُ في كتبِ التَّاريخ، ويتحدث عنها الناس!
من قال أنّ علينا جميعاً أن نكون مخترعين،
أو فقهاء، أوأدباء، أو ساسة، أو أثرياء، أو مشاهير،
لنكون من أصحاب الإنجازات،
يكفي أن يكون المرءُ إنساناً، فهذا بحدٍّ ذاته إنجاز عظيم!

نحن أبطال يا صاحبي،
وإن لم نقد الجيوش ونُحقق النصر،
أو نخترع دواءً، أو نكتشف قانوناً في الفيزياء،
أو نعثر على مركَّبٍ جديد في الكيمياء، أو نضع قاعدةً في الرياضيات،
أو بحراً جديداً من بحور الشِّعر، أو نفوز بجائزة نوبل!

نحن أبطالٌ حين نُجاهد أنفسنا كل يومٍ كي لا نعصي الله سبحانه،

وأبطالٌ حين نعصيه فنعود إليه مكسورين مستغفرين!

نحن أبطال حين نجبر خواطر النَّاس،
وحين نختار مفرداتنا بدقةٍ كي لا نُؤذي أحداً!

نحن أبطال حين نمرُّ بالبائع المتجول المسكين فنشتري منه، ونتغاضى في السِّعر قليلاً، ونحسبُ هذه الصفقة صدقةً خفيَّة!

نحن أبطال حين نصل إلى آخر الشهر بمرتباتنا الهزيلة ونستر فقرنا عن النَّاس!
نحن أبطال حين نربي أولادنا كي يخافوا اللّٰه،
ونلاحقهم على حفظ جزء عمَّ كما نلاحقهم على حفظ جدول الضَّرب!

نحن أبطال يا صاحبي حين نبرُّ آباءنا وأمهاتنا،
وحين نحسن إلى جيراننا، ونساعد زوجاتنا، ونصل أرحامنا!

نحن أبطال حين نجاهد على مقاعد الدراسة،
وحين نقتلع رغيف الخبز لأولادنا من الصخر!

دوَّن في خانة إنجازاتك يا صاحبي قيامك لصلاة الفجر!
ودوِّن أيضاً إمساكك بيد أحبائك رغم كلِّ شيءٍ،

فمن أعطاك قلبه فقد ائتمنكَ عليه،
والله يُحبُّ أن تُؤدى الأمانات إلى أهلها!

دوِّن في خانة إنجازاتك تلك اللحظة التي فرحتَ فيها بنجاح غيرك،
فهذا يعني أن لكَ قلباً طيباً!
ودوِّن أيضاً دعاءكَ بالبركة لكل صاحب نِعمةٍ،
فهذا يعني أنكَ تربَّيتَ جيداً، ورضيتَ بقسمة الله!

دوِّن في خانة إنجازاتك كل دمعةٍ مسحتها لمحزون،
وكل كلمةٍ حلوة قلتها لمجروح، وكل تربيتة ربّتها على كتف مكسور!

دوِّن في خانة إنجازاتك غيرةً أحرقتكَ فكتمتها،
كي لا تُفلتَ يدكَ في منتصفِ الطريق!

والسّلام لقلبكَ

24

السّلام عليكَ يا صاحبي،

في فترةٍ من حياته اعتزلَ الإمامُ مالكٍ الناس،
فلم يكنْ يشهدُ الجمعة ولا الجماعات،
ولا يعودُ مريضاً ولا يمشي في جنازة!
فلما سُئل بعد ذلك قال: ليس كل إنسان يستطيعُ أن يبوح بعذره!

وها أنتَ على خُطى الإمام الأثير على قلبك،
تنأى بنفسكَ في ركنٍ قصيٍّ،
تعتزلُ ولا تستطيعُ أن تبوح بعذرك،
بعض الأعذار لا يقبلها الصَّديق ويشمتُ فيها العدو،
ويا للقلوب حين يتنافر ودَّها،
تكشفُ لكَ أن أطول مسافة في الكون
هي المسافة بين شخصين كانا يوماً ما شخصاً واحداً!

يا للصُّحبةِ التي معك، مصحفُكَ، ومدارج السالكين لابن القيم، وتفسير ابن كثير!
تتلو الآن قول ربِّكَ ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾
يا للجمال،
اِرتوِ يا صاحبي،

وأَصْلِحْ بآيات ربِّكَ خراباً أحدثته في قلبِكَ،

يحدثُ أن تقرأ آية في القرآن فتحتضنك كما لا يمكن لأي ذراعين احتضانك،

وتسندكَ كما لا يمكن لأي عكاز إسنادك،

وتُعزِّيكَ كما لا يمكن لأي كلام تعزيتك،

وتُواسيكَ كما لا يمكن لأي قول مواساتك،

هذا القرآن حضن وعكاز وعزاء ومواساة،

وأحياناً كثيرة ضمّاد لجروح كثيرة لا يراها الناس!

وتقرأُ في المدارج: فإذا اضطربَ القلبُ وقَلِقَ، فليس له ما يطمئنُّ به سوى ذكر اللّه!

يا لابنِ القيِّم كيف يبعثُ لكَ رسائلَ من اللّهِ ليُصلح لكَ قلبكَ،

ويهبُكَ خارطة الوصول إلى خالقكَ،

فإنكَ إن وصلتَ ما همَّكَ بعد ذلك ما فاتكَ من الدُّنيا!

وتقرأُ في تفسير ابن كثير قول عبد اللّه بن مسعود عن النبيِّ ﷺ:

سلوا اللّه من فضله، فإن اللّه يُحِبُّ أن يُسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفَرَج!

فتُوكِّل أمركَ لرَبِّكَ وتتعبده بانتظار أن يمنَّ عليكَ بفرجٍ قريب!

تتذكرُ وأنتَ تقرأُ كيف أن شباب دار الأرقم قد رموا جثث صناديد دار الندوة في قُليب بدر!

فتعرف أن لا مستحيل على الله،
وأن الزمن يدور ومعه يد الله تمسحُ على قلب المؤمن المكلوم،
وأنتَ مكلومٌ يا صاحبي، فاصبِرْ!

أما معَ النَّاس فعليكَ بقول عُمر بن الخطاب: اِعتزل ما يُؤذيك!
فمن لم يُقِلْ لكَ عثرةً وطالما أقلتَ له عثراته،
فاعلم أنه كان ينتظرها منكَ ليرحل!

ومن مددتَ إليه يدكَ فأبى أن يمسكها وأنتَ الذي طالما تشبَّثتَ به،
فقد أراد أن تُفلته هذه المرَّة ليرحل!

ومن أطال عتابَكَ فإنما أراد أن يتخلَّص من شعوره بالذنب،
ويُحملكَ إياه ليُقنعَ نفسه أنه مظلومٌ قد رحلَ!

لا تطرق الباب أكثر، ولا تتسلَّقْ جداراً لتصل إلى من لا يريدُ الوصول إليكَ!
حسبُكَ أنكَ قد حاولتَ،

ثم الآن، فالهجر بالهجر، والنسيان بالنسيان، وصدٌّ الباب بصدٍّ الباب!
وقُلْ لهم: إن عثرتم علينا بعد اليوم فعاتبونا،
وإن مددنا إليكم يدنا بعد ذلك فاقطعوها،

والسّلام لقلبكَ

25

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تـأوي الآن إلـى نفسِـكَ متعبـاً كجنـديٍّ هـو الناجـي الوحيـد مـن أفـراد كتيبتـه،
وإنكَ لا تدري الآن أتفرحُ لأنكَ بقيتَ حياً،
أم تندبُ لأن خسارة المرءِ لأحبابه هو موتٌ آخر؟!

يحدُثُ يا صاحبي أن تُغيِّرنا الدُّنيا،
حتـى أن المـرءَ ليسـتغرب مـن نفسـه قبـل أن يسـتغربَ منـه الآخـرون!
فيسألُ نفسه في لحظة ذُهولٍ: من هذا الذي لايُشبهني؟!

هذه الدُّنيا قاسية يا صاحبي،
تضيقُ على المرءِ حتى ليشعرَ أنه جالسٌ في خرم إبرة،
ما يفيدُ اتساعُ الكون وقد ضاقتْ نفسُكَ عليكَ؟!
يهيمُ المرءُ على وجهه من فرطِ ما يجِدُ،
حتى أنه ليمشي ولا يعرفُ إلى أين يسير!

سـألتْ عائشـة النَّبـيَّ ﷺ إن كان قـد مـرَّ عليـه يـومٌ أثقـل مـن يـوم أُحـدٍ،
فحدَّثها عن يوم رجموه في الطائف،

وقال ﷺ:
«انطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي لا أدري إلى أين أمشي،
ولم أستفِقْ إلا وأنا في قرن الثعالب!»
هذا وهو نبيٌّ ﷺ فكيف بالذين من دونه وكلنا دونه!

ثمة أشياء لا يبررها المنطق،
ثمة حزن أكبر منا،
ثمة مشاعر لا تحملها الجبال وهي من صخر،
فكيف نحملها ونحن الذين من لحم ودم؟!
وها أنتَ تهيمُ على وجهكَ،
لا قرن ثعالب تستفيقُ عنده،
ولا صديق يربتُ على كتفِكَ،
وحيدٌ تماماً كآدم عليه السّلام يوم أُهبطَ إلى الأرض وحواء بعيدة عنه،
يا للوحشة ما يفعلُ امرؤٌ وحده في كوكب شاسع وقد فارقَ جنَّته، وفقدَ حبيبته؟!

تأوي إلى نفسِكَ،
وتبكي بمرارةٍ كما لم تبكِ من قبل،
وإنك لا تدري ممَ تبكي؟
خَجِلاً من نفسِكَ، أم موجوعاً من الحياة التي وضعتكَ في معركةٍ تطحنُ العظم،
أم من كسر خاطرٍ كان كسرُ عظمكَ أهون عليكَ من أن تكسره؟!

ثم ها أنتَ وحدكَ،
تُقررُ تأديبَ نفسِكَ،
وإصلاحِ عطبٍ في قلبكَ،
وتسألُ اللّه جبراً للكسر، ومغفرةً للذَّنبِ،
وصبراً، فاللهمَّ صبراً!

والسّلام لقلبكَ

26

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: لِمَ يتقلَّبُ الزمانُ هكذا حتى ليبدوَ أنْ لا أمان له؟!
فأقولُ لكَ: الأيامُ جندٌ من جنودِ اللهِ يا صاحبي،
يداولها بين النَّاس، ليُرِيَ خلقَه أنه لا يبقى على ما هو إلا هو سبحانه!

يا صاحبي،
كان فرعونُ يتجبَّرُ ويقول ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾
فأدار اللّه الزمان ثم أجرى الماء من فوقه،
لو أنكَ رأيته وجبريل يحشو الطين في فمه،
على مرأى من الطفلِ الرضيع الذي بكى في قصره يوماً يريدُ أن يرضعَ!

يا صاحبي،
كان النمرودُ يقولُ ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾
فأدار اللّه الزَّمان ثم أرسلَ له بعوضةً خرَّبتْ عيشه،
وكان لا يهدأ إلا إذا ضربه على رأسه بالنعال،
أولئك الذين كانوا يسجدون له بالأمس!

يا صاحبي،
خرج النبيُّ ﷺ من مكة تحت جنحِ الظلامِ

بعدما أخذتْ قريش من كل قبيلةٍ رجلاً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين الناس!

فأدار اللّه الزمان، ثم أعاد نبيّه إلى مكة فاتحاً في عزٍّ الظهيرة!

يا صاحبي،

لو أنكَ رأيتَ بلال بن رباح وقد طرحه أمية بن خلف على رمال مكة الملتهبة،

لقلتَ أما لهذا العذاب من آخر؟!

ثم أدار اللّه الزمان، التقت الفئتان في بدر،

وكان بلال يغرس سيفه في صدر أميَّة

لعلمتَ حكمة اللّه في تقليب الزمان!

يا صاحبي،

هذه هي الأيام، يجريها من خلقها بين خلقه،

تارة صحة وتارة مرض،

تارة غنى وتارة فقر،

تارةً فرح وتارة حزن،

حتى لا يغترَّ قوي ولا ييأس ضعيف،

ولا يتجبر غني ولا يقنط فقير،

ثم إنه يرمي الناس بسهام قدره،

فكُنْ في كل أحوالكَ بجانبِ الرَّامي تنجُ!

والسّلام لقلبكَ

27

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: كيف يأتي الحُب؟!
فأقول لكَ: ليس له طريقة واحدة يأتي بها،
ولكنه حين يأتي ستعرف ذلكَ بلا شك!

يأتي الحُبُّ أحياناً من أول نظرة،
هكذا يصيبك كبرقةٍ تتركك رماداً عاجزاً عن المقاومة،
هذا ما يسمونه الحُب من النَّظرة الأولى يا صاحبي،
وإني وإن كنتُ أؤمن بوجوده إلا أني لم أجربه،
فإنَّ لي شأناً آخر مع الحُب!

ويأتي الحُبُّ أحياناً مع العِشرة،
تعامل دائم، وطول مُدَّة،
وهذا فيه من الإعجاب أكثر مما فيه من الحُب،
بالمناسبة يا صاحبي،
الإعجاب يأتي مرَّاتٍ، والحُبُّ يأتي مرَّةً واحدة، فلا تخلِطْ بينهما!

أما مذهبي في الحُب،
فذاك الذي يتسللُ إليكَ على طبقٍ من الصَّداقة،

يحتلُّكَ خليَّةً خليَّةً دون أن تنتبه،

ثم عندما تضربكَ عوارضه،

وتجتاحُكَ فتنته،

يكون الوقتُ قد فات على التَّراجع!

إنه يُشبه إلى حدٍّ بعيد تلك الأمراض الخبيثة،

التي عندما يتمُّ تشخيصها تكون قد استفحلتْ، وفاتَ أوانُ علاجها،

مع فارقٍ مهمٍّ جداً،

أن الحُبَّ مرضٌ لذيذ لا تريدُ الشَّفاء منه!

والسّلام لقلبكَ

28

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تشكو إليَّ انكساراً في خاطركَ،
وجرحاً في قلبكَ، ووهناً في نفسكَ،
وتسألني: أهوَ غضبٌ من اللهِ؟!
فأقول لكَ: هذه واللهِ من أمارات حبِّهِ،
فإنَّ الله سبحانه إذا أحبَّ عبداً ابتلاه،
وما زال البلاء في المؤمن حتى يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة!

بلاءٌ يجعلكَ تُقبلُ على الله بقلبكَ وجوارحكَ،
خيرٌ من نعمة تُطغيكَ،
ولعلَّه أرادَ أن يُعطيكَ فمنعكَ،
ومتى فتحَ لكَ بابَ الفهمِ في المنعِ فقد اجتباكَ!

اُنظُرْ في سِيرِ الصَّالحين يا صاحبي،
تعرِفْ أن الابتلاء لم يكُنْ إلا مخاضاً للاصطفاء والتقريب!
بكى يعقوب عليه السّلام فَقْدَ ابنه حتى ذهبَ بصره،
ولم يكُن ربّنا مشغولاً عنه،
وإنما كانت يده تصنعُ من يوسف عليه السّلام ملكاً!
فلا تستعجلْ، فإنَّ أحلكَ ساعات الليل هي تلك التي تسبقُ الفجر بقليل!

خرجَ موسى عليه السّلام من مصر خائفاً يترقَّب،
فلا تنظُرْ إلى مرارة الابتلاء فبعدها حلاوة الجبر،
أي خوفٍ ذاك الذي أعقبه النداء العظيم: إنني أنا اللّٰه؟!
ثم بلسمَ له قلبه ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾

يا صاحبي،
نُشر زكريا عليه السّلام بالمنشار،
وقُدِّمَ رأسُ السيد الحصور يحيى مهراً لبغي،
وفي بطن الحوت لبثَ يونس،
وألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً وما آمن مع نوحٍ إلا قليل،
وأعواماً طويلة من المرض ذاقها أيوب،
ثم تتأففُ أنتَ وتستطيل البلاء؟!

الجبرُ قريبٌ يا صاحبي،
غمامة صيفٍ ستنقشعُ بإذن اللّٰه،
ولن يبقى من هذا الحزن إلا ذكرى تُخبرك دوماً،
أن من كان مع اللّٰهِ كان اللّٰه معه!

والسّلام لقلبكَ

29

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ها أنتَ مُنهكٌ مرَّةً أخرى ولا تكادُ تقوى على حمل نفسِك،
ولكن عليكَ أن تُكملَ المهمَّة،
فلا يُسمحُ للجنود بالاستلقاء أثناء المعركة وإن أنهكهم التَّعب!

تحاملْ على نفسِكَ يا صاحبي،
نحن لا نتوقف حين نتعب،
وإنما حين ننتهي،
وإنَّ لكَ ثغراً قد أوكل اللّه سبحانه لكَ حمايته،
فَسُدَّ ثغركَ ولو بقطعٍ من لحمِكَ،
وإياك أن يُؤتى الإسلامُ من قِبلك!

لا شكَّ أنكَ تعرفُ من أين استقيتُ نصيحتي هذه،
أنتَ قصصتها عليَّ يوماً وأنتَ تربتُ على قلبي،
والأيام دُول،
والتربيت على القلب كالجروح قِصَاص،
واحدة بواحدة يا صاحبي!

حدَّثتني عن سالم مولى أبي حُذيفة،
العذبُ الرقيق حافظُ القرآن،

أوكلوه ثغراً في المعركة،
وخافوا أن لا يكون له جَلَدُ المقاتلين،
فالرجل صاحب قرآن، فقال لهم: بئسَ حاملُ القرآن أنا إن أوتيتم من قِبلي!

عليكَ أن تسير ولو نازفاً يا صاحبي،
لا عليكَ كيف ستصل،
لا يهمُّ إن وصلتَ أنيقاً أو ممزقاً،
المهم أن تصل، إن بلوغ الغايات ترميم للروح،
ثم حتى وإن لم تصل،
فليكُنْ عزاؤك لنفسك أن الموت على طريق الحق تأدية للأمانة،
وهذا بحد ذاته وصول!

نحن نُسأل عن الأسباب يا صاحبي لا عن النتائج،
ويوم القيامة يؤتى بنبيٍّ لم يُؤمن به أحد!
تخيَّل هذا المشهد، وتعزَّ به، نبي لم يقتنع بدعواه أحد!

جولة مريرة ستنقضي وستخرجُ منها معافىً بإذن الله،
تنظرُ إلى آثار الندوب تتحسسها،
وتبتسمُ مستشعراً رحمة هذا الرَّب الذي لجأتَ إليه فكفاكَ ما نزلَ بكَ!

والسّلام لقلبكَ

30

السّلام عليكَ يا صاحبي،

يشهدُ اللّهُ أنكَ عندي لا تهون،
وأنَّه آلمني أن كلماتي آلمتكَ،
وإن لم أكُنْ قاصداً،
هكذا أنا أتأذى من ألم أُسببه لكَ أكثر من ألم تُسببه لي!
وإني في كلِّ نزالاتي معكَ لم أكن أبحثُ عن نصرٍ،
يتساوى عندي معكَ النصرُ والهزيمة، إلى هذه الدرجة كنتَ دوماً أنا!

تعرفُ جيداً كم أوجعتني وإن لم تكُنْ قاصداً،
أو مسلوب الإرادة لا تملك من أمرك شيئاً،
ولكن لا تنسَ أنه لا يُقارن الفعل بردة الفعل!
ورغم هذا آتيكَ لأُطيّبَ خاطركَ،
فإنَّ كسر عظمةٍ في جسدي أقل ألماً في قلبي من كسر خاطرك!
أرأيتَ من قبل شخصاً نهشه السرطان يعود من أصابته نزلة برد!

يحدث أن يُفضفض المرءُ يا صاحبي،
وما على الذبيح من سبيل إن انتفضَ وأصابكَ شيءٌ من دمه!

وما على الذي اشتعلَ البركان في قلبه من مؤاخذة إن نفث ما إن كتمه سيحرقه،

وعلامَ يغضبُ من أوقد البركان إن أصابه شرر؟!

الزجاج يا صاحبي لا يُصبح جارحاً إلا إذا انكسر!

يا صاحبي لم أمدَّ يدي إليكَ يوماً من شفقة،

ولا أعطيتك كتفي لتتكىء عن صدقة،

كنتُ دوماً آتيكَ من تلقاء قلبي،

تماماً كما أكتب إليك الآن من تلقاء قلبي،

أتحاملُ على نفسي،

وأتناسى كل الذي أنا فيه، كي لا تنام أنتَ حزيناً!

يا صاحبي،

يحدث أن تجتمع على المرء الأشياء دفعةً واحدة،

لا حبيبه له، ولا صديقه يُؤتمن، ولا عدوه يغفل عنه،

فيجد نفسه وحيداً عليه أن يواجه هذا العالم،

وهو يبحث عن باب الخروج من هذا الكوكب ولا يجد!

والسّلام لقلبكَ

31

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: لِمَ كانت الصَّفعة موجعةً هذه المرَّة رغم أن من عادة الدنيا أن تصفعني؟!
فأجيبكَ: لعلَّ ما أوجعكَ ليست الصَّفعة وإنما يدُ الصَّافعِ!
يعزُّ على المرءِ يا صاحبي أن يُصفعَ باليدِ التي طالما قبَّلها!

أو لعلَّه التوقيتُ يا صاحبي،
أحياناً تمرُّ بالإنسان عاصفةٌ فلا تُحرِّكُ فيه شعرةً،
وأحياناً تخدشه نسمة!

أو لعلَّها الأحزانُ قد تراكمتْ يا صاحبي،
فالإنسان عندما يحزن يستدعي كل أحزانه السَّابقة كأنَّ حزناً واحداً لا يكفيه!
الجرحُ يا صاحبي يستدعي جرحاً مماثلاً،
والخيبة تستدعي خيبةً تشبهها،
لهذا أنتَ لم تكُنْ أمام خيبةٍ واحدة،
لقد كنتَ واقفاً أمام خيباتك كلها ولكنك لا تعلم!

أو لعلَّها الغربة يا صاحبي،
لا شيء يجعلُ المرءَ هشّاً مثل أن يكون وحده،

يشعرُ أنه في جهة وهذا الكوكب كله في جهة أخرى
وعليه أن يواجهه، وهو لا يريد أن يواجه،
وإنما ينظرُ يميناً وشمالاً،
يبحثُ في هذا الكوكب عن باب ليغادر ويقفله خلفه!

والسّـلام لقلبكَ

32

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقول لي: لقد خذلني الأصدقاء!
فأقولُ لكَ: الأصدقاء لا يَخذِلون،
كُلُّ ما في الأمر أنك تطلقُ لفظ الصَّديق على كُلِّ عابرٍ!

النَّاسُ هم الناس يا صاحبي في كُلِّ عصر،
أما قرأتَ صحيح البخاري وعرفتَ كيف أن النَّبي ﷺ قال:
النَّاسُ كإبل المئة لا تكادُ تجدُ فيها راحلة!

لقد نصحنا الأعرابُ فقالوا: أَكْثِرْ معارفكَ وقللْ أصدقاءكَ،
ولكننا ما انتصحنا!
فتعلمْ أن تتخفف يا صاحبي،
الكثير من الناس مجرد حمولة زائدة!

كُنْ انتقائياً،
احتفظْ بالنُّخبة،
فالمواقف غربال الناس!
الذي مسحَ دمعتك بيده،
لا يُشبه ذاك الذي قال لكَ لا تبكِ!
والذي جاءك في لحظة انكسارك،

فشدَّ على يدك وقال لك أنا بجانبك،
لا يُشبه الذي قال لك إن احتجتَ شيئاً فكلمني!
والذي عندما سُئلتَ عن حالك،
فقلتَ أنا بخير،
فعرفَ من انكسار صوتك، ومن حزن نظراتك،
أنك لستَ بخير،
يختلفُ كثيراً عن الذي صدَّق أنك فعلاً بخير!

والسّلام لقلبكَ

33

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: كيف حالك؟
يا لمشقَّةِ السُّؤال!
العالم حولي صاخب ومزدحم،
وأنا وحيد!

لا أعرفُ كيف أشرح لكَ هذه المتناقضة،
ولكن صدقني يحدثُ أن يكون المرءُ وحيداً وهو في زحام!

يحدث يا صاحبي أن تكون كفزَّاعةِ الحقل،
تُؤدي مهمتها بجدارةٍ،
تُخيف العصافير فلا يقربوا المحصول،
ولكنها من الداخل تنزُّ ألماً،
وتتمنى لو أن عصفوراً جريئاً يُدرك أنها ما اختارت هذه المهمة،
فيلقي عليها التحية!

يحدثُ يا صاحبي أن تُسلمكَ طائرة إلى طائرة،
ومطار إلى مطار،
ولكنك تشعرُ أنك لم تُسافر،

صدِّقني يمكنُ للمرءِ أن يبقى عالقاً في مكان ما مهما ارتحل عنه!

يا صاحبي،
تعبتُ من الأشياء التي اختارتني،
واشتقتُ إلى الأشياء التي اخترتها،
اشتقتُ إلى قبلةٍ أطبعها على يد أمي،
وإلى امرأةٍ أفتحُ ذراعيَّ وأقول لها تعالي،
إلى شعور الأمان الذي تحدثه فيك امرأة تداعبُ شعرك بأصابعها!
يا صاحبي،
لا أعرف كيف أخبرُكَ أن الرِّجال كلما صاروا أكثر خطورة،
صاروا أكثر حناناً وشغفاً،
ولكن صدقني إنَّ الأمر كذلك!

قالوا قبلنا يا صاحبي:
مشيناها خطىً كُتِبَت علينّا
ومن كُتبت عليهِ خطىً مشاها

وإنني أسيرُ في دربٍ كُتب لي،
لن أتراجع، ولن ألين،
فلستُ بالذي يعيش بلا قضية،
ولكني وحيد وأشتاق!

والسلام لقلبكَ

34

السّلام عليك يا صاحبي،

أعلمُ أنكَ مُتعبٌ يا صاحبي،
وأنَّ ما فيكَ يكفيكَ،
وأنَّ آخر ما ينقصكَ حمل جديد،
فأنتَ تنوءُ تحت حملكَ القديم!

وأعلمُ أنكَ ربما حدَّثتَ نفسكَ قائلاً:
ماذا على المُتْعَب لو أنه أفلتَ يده؟

لا يا صاحبي،
إنَّ إفلاتَ اليد في أول الطريق خَيَار،
ولكنه في المنتصف جريمة!
ثم قِفْ هُنيهة،
وراجع حديثنا القديم،
حديثكَ أنتَ أعني: إن اللّه لا يضعُ ثمراً على غصن لا يستطيع حمله،
وأنه سبحانه يختار أخلص جنده لأنقى معاركه،
وأن دماً كثيراً نفرَ من الشرايين لتبقى راية هذا الدِّين خفَّاقة،
ومن أراد أن يقتدي فليقتدِ بالذي ماتَ فقد أَمِنَ الفتنة!

تعرفُ أكثر مني لماذا العبادة في الهرج كهجرة إلى النبي ﷺ،
وتعرف أكثر مني أنه قد عاد غريباً كما بدأَ،
وأن «طوبى لكَ» تطرقُ بابكَ، فلا تُفلِتْ يدكَ!

أو لعلَّكَ ما حدَّثتَ نفسك بشيءٍ من هذا،
ولعلني يا صاحبي أردتُ أن أُثبِّتَ نفسي،
فألبستُ الكلام ثوب تثبيتك،
أعرفكَ جيداً، أعرفُ كيف تكون عند حسن الظنِّ دوماً،
وكيف تشتدُّ حين نقول أنك ستضعف،
وكيف تلين حين نظن أنك ستنتقم،
ليتَ لي شيئاً من اتزانك،
فلا تقُل بعد هذا أني لم أَربِتْ على قلبك!

يا صاحبي،
إنما المرءُ بإخوانه كما تقول،
فهذا قلبي تحت قدميكَ فانتعِلْ هنيئاً،
وهذا كتفي فاتّكئ مريئاً،

والسّلام لقلبكَ

35

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: لِمَ لمْ تُعاتبهم هذه المرَّة كعادتِكَ؟
فأقولُ لكَ: كنتُ أعاتبهم لأني كنتُ أريدُ أن أبقى!
أما الآن فقد اكتفيتُ وأريدُ أن أغادر،
وأنا حين أُغادرُ أقفلُ الباب خلفي بهدوءٍ وأمضي،
يُصبحُ المرءُ بارداً لشدَّةِ ما احترقَ!

العِتابُ يا صاحبي هو تطهيرٌ للجرحِ،
فلا يصِحُّ أن تخيطَ جرحَكَ دون أن تُنظِّفه،
ولكنَّ الأمر مختلفٌ هذه المرَّة،
ليست كل الجروح قابلة للشفاء،
فأحيانًا يبترُ الأطباء العضو الذي أصابه التَّلفُ حفاظاً على ما تبقَّى،
وهذا بالضبط ما أفعله الآن، أُلملمُ ما تبقَّى مني، وأمضي!

لستُ ضدَّ مراعاة المشاعر، بشرط أن لا تُداس مشاعري في المقابل!
ولستُ ضدَّ جبر الخواطر، بشرط أن لا يكون كسر خاطري هو الثمن!
قلتُ لهم مرَّةً: إذا وضعتموني بمقارنة مع أحدٍ فلا تختاروني،

فهذه إساءة لي ولو تمَّ اختياري، فأنا لا أُقارِنُ ولا أقارَن!
ثم إنَّ هناك ما هو أسوأ من هذا يا صاحبي،
وهو أنهم اختاروا غيري،
فأي بقاءٍ بعده،
وأي عتابٍ يجدي،
المهزوم لا يُعاتبُ، ولقد هُزمتُ!

يا صاحبي،
عندي ثلاثمئةٍ وستين عظمة وقلب واحدٍ،
تركوا عظامي كلها،
وكسروا قلبي!
ليتهم كسروا لي عظمةً،
وتركوا لي قلبي لأحبهم به!

والسّلام لقلبكَ

36

السّلام عليكَ يا صاحبي،

لا تبتئسْ لأنهم تركوكَ وأنتَ في أشدِّ لحظاتِكَ حاجةً إليهم،
صدِّقني، كلما جاءت الخيباتُ باكراً كلما صار ترميمها أسهل!
الطَّعنة في منتصف الطريق موجعة،
ولكنها في آخره موت،
إن بقيَ فيكَ رمقٌ!
يا صاحبي،
لا تلُمْ نفسكَ، ولا تبحثْ فيكَ عن سببٍ،
الغادرُ لا يحتاجُ سبباً،
لقد كان غادراً منذ البداية،
وكان يتحيّن الفرصة، وها قد أتتْ!

وإياك أن تسأل: لِمَ تغيَّروا؟!
كانوا هكذا منذ البداية،
فالأيام لا تُغيّر الناس،
ولكنها تكشفهم على حقيقتهم!

قالوا قبلنا: أفضل جهازٍ للكذب هو الأيام!
وها قد سقطت الأقنعة،
وظهرت وجوه المفترسين على حقيقتها!

يا صاحبي اُنظُرْ للأمر من زاوية أخرى،

فهم حين تركوكَ، علموكَ كيف تُحارب لتنجو!

وكيف تسبحُ معتمداً على اللهِ ثم ذراعيكَ!

صدقني لم تخسرْ،

لقد كنتَ تحسبُهم طوق نجاةٍ بينما لم يكونوا إلا قشَّة!

يا صاحبي،

كل خذلانٍ من الناس يُقربكَ لله أكثر،

فتزداد يقيناً أنه أمانكَ الوحيد،

فتحامل على نفسكَ وامضِ،

واقرأْ في المصحف، ورمم ثقوب قلبكَ،

وتعزَّ بالذين سبقوكَ!

فإن أُلقيتَ في جُبِّ الحُزن،

فقد أُلقيَ يوسف عليه السّلام قبلكَ وبيد إخوته!

وابكِ،

لا حرج يا صاحبي أن تبكي،

نحن بشر،

وفي البكاء راحة ومستراح،

ومن قبلكَ بكى يعقوب عليه السّلام،

ولكنه لم يتعلق بحبال الناس،

وإنما شكا بثه وحزنه إلى الله!

الصعاب ستمضي يا صاحبي،
تذكَّرْ مريم يوم قالت: ليتني متُّ قبل هذا!
ولم تكُنْ تدري أنها وضعتْ نبياً من أولي العزم من الرسل،
لعلَّ ما أحزنكَ الآن هو أجمل ما حدثَ لكَ!

الشجرة يا صاحبي لا تئنُّ تحت ضربات الحطَّاب،
وإنما ترمقه بشموخٍ من أعلى!
فإياكَ أن تَئِنَّ،
فإنَّ حطَّابكَ الذي جاء لاجتثاثكَ يسعده صوتُ أنينكَ،
فإياكَ أن تُسمعَه ما يُسعده!

يا صاحبي،
إنَّ الشجرة لا تبكي على غصنها الذي خلعته الريح،
إنها تعضُّ على جرحها،
وتنتظرُ الربيع لتنبت غصناً آخر، وتُزهر!

وهكذا هي الحياة،
إن ما تخسره ليس بالضرورة أن تسترده،
ولكنك ستعثر على ما هو خير منه!
فعُضَّ على جرحك،
وانتظِرْ ربيعكَ،
وأنبِتْ غصناً آخر،
وأزهِرْ كما يليقُ بكَ!

والسّلام قلبك

37

السّلام عليك يا صاحبي،

تسألني: لماذا لم يُعطني اللّه ما سألته إياه؟
فأقول لك: إن الطبيب لا يعطينا الدواء الذي نريده،
ولكنه يعطينا الدواء الذي نحتاجه!
ولعلك تطلب من اللّه ما فيه ضررك!
أنت تنظر إلى الأشياء بنظرتك البشرية القاصرة،
واللّه يدبِّر الأمر بعلمه الكامل!

يا صاحبي،
إنّ الصبي الصغير إذا رأى حبوب الدواء الملونة بكى يريدها،
فمنعه أبواه منها،
الطفل يحسب في الأمر حرمانًا،
والأبوان يعرفان أن بعض المنع عطاء!
هكذا يدبر اللّه الأمور برحمته، فتأدّب!
أو لعل اللّه أراد أن يعطيك ما سألته،
ولكن الوقت لم يحِن بعد،
التوقيت جزء من حكمته التي لا تراها!

يا صاحبي،
اقرأ قول ربك: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

ثمّةَ أشياء عليك أن تنضج لتحافظ عليها إن أنت أُعطِيتها!

يا صاحبي،

لو فرّج اللّه عن يوسف عليه السّلام أول الأمر؛

ما كان له أن يصل إلى كرسي المُلك،

كان يوسف بين القضبان،

ولكن يد الجبار كانت طليقة تدبر الأمر،

وتُهيّء الأسباب للأعطية الكبرى.

يا صاحبي،

عشر سنوات لموسى عليه السّلام في مدين لم تكن مَضْيعة،

كان على الظروف أن تتهيأ في مصر لقدومه،

وكان عليه هو أيضاً أن يُصقل جيدًا،

فالحِمل ثقيل لاحقا،

والتأخير صقل وإعداد!

يا صاحبي،

أراد المسلمون أن يُشهروا سيوفهم في مكة،

ويدفعوا عن أنفسهم الظلم،

ولكن الإذن بالقتال تأخر لما بعد الهجرة الشريفة!

الذي نصرهم بعد الهجرة كان قادرًا على أن ينصرهم في بطن مكة قبلها،

ولكن اللّه أراد أن يُربِّيهم أولًا؛

لأن السيف الذي ليس وراءه عقيدة؛

سرعان ما ينحرف،

وقد أراد ربك أن تُحمل السيوف إعلاءً لكلمته،

لا انتقامًا من العدو،

ولا انتصارًا للذات!

يا صاحبي،

لقد كان في قصصهم عبرة: فتأمّل واعتبر!

فإن مُنعتَ مطلقًا؛ فهي الرحمة،

وإن أُعطيتَ: فهي الحكمة،

وإن تأخرّت العطية؛ فهذا ليس أوانها!

والسّلام لقلبكَ

38

السّلام عليكَ يا صاحبي،

قرأتُ البارحة في تاريخ دمشق لابن عساكرٍ
عن سُهيلٍ أخي حزم قال:
رأيتُ مالكَ بن دينارٍ في منامي بعد موته فقلتُ له:
يا أبا يحيى بمَ قدِمتَ على اللّٰه؟
فقال: قَدِمتُ بذنوب كثيرة، محاها عني حُسن الظنِّ باللّٰه!

يا صاحبي،
أحسن الظنَّ باللّٰه!
فواللّٰهِ ما حملَ القلبُ خيراً من حُسنِ الظن به سبحانه،
فليكُن قلبُكَ مليئاً بهذا،
كُنْ على يقينٍ أن الكريم إذا ملكَ عفا،
وأنكَ متى أُدْرِجتَ في أكفانكَ،
وأهيل عليكَ التراب في قبركَ،
فإنكَ في مُلكِ الكريم الذي كنتَ تسجدُ له!
الكريمُ الذي كنتَ تتصدقُ ابتغاء وجهه،
الكريم الذي كنتَ تلينَ للناس طمعاً أن يلين لكَ،
الكريم الذي كنتَ تجبر الخواطر رغبةً أن يجبر خاطركَ،
الكريم الذي كنتَ تخشى لأجله هذا الموضع،
ومن خافَ أَمِنَ، أمِنَ يا صاحبي،

أنتَ في مُلكِ الكريم فأحسِن الظنَّ!

يا صاحبي،

إن المؤمن إذا عاد إلى الله،

كان كالمسافر الذي عاد إلى أهله،

ليكُن هذا ظنُك دوماً بربك،

الله أرحم من أن يُعذِّبَ قلباً امتلأ بحبه!

إن النبيل من الناس لا يُعذب أحبابه،

فكيف بالله؟!

يا صاحبي،

لا تشُكَّنّ لحظةً أنكَ ثابتٌ عند السؤال،

وأنكَ ستجيبُ بطلاقة:

اللهُ ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيّي ورسولي!

إن القلبَ ينطقُ بما دعا،

والإناء بما فيه ينضح،

والله أكرم من أن يُلعثم قلباً امتلأ به!

يا صاحبي،

لا تشُكَّنَّ لحظةً أنكَ آخِذٌ كتابك بيمينك،

وآتٍ أهلك وأحبابك قائلاً:

هاؤم اقرؤوا كتابيَ!

الكتاب المليء بالصلاة والصيام والصدقة والاستغفار وجبر الخواطر،

يقذفه الله بيمين صاحبه،

فأحسِن الظن بربك!

يا صاحبي،

لا تشكّنَّ لحظةً

أنك مجتازٌ الصراط بخفةٍ وإن كان لكَ معصية،

أنسيتَ ندمكَ كل مرةٍ؟

أنسيتَ استغفارك وانكسارك؟

كل هذا لا يضيعُ عند الله سُدى!

يا صاحبي،

لا تشكَنَّ لحظةً

أنك داخل الجنة بلا سابقة حساب ولا عذاب،

وأنك شارب من يد النبي ﷺ شربةً لا تظمأ بعدها أبداً،

وأنك بعد هذا كله ناظِرٌ إلى وجه ربك،

ولا شيء أجمل من هذا أبداً، لا شيء،

فأحسِن الظنّ باللهِ!

والسّلام لقلبكَ

39

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقعُ الخلافات دوماً بين الأحبة،
ولكن العلاقات ليست دوماً متشابهة،
هناك فرقٌ شاسع بين الذي يتركك فريسةً لحزنك،
وبين الذي يأتيك في أوج الخصام ليقول لكَ:
أنكَ واللّهِ لا تهون!

هناك فرقٌ شاسع بين حبيبٍ نام وتركك تتقلبُ
على جمر الخلاف،
وبين الذي يأتيك آخر الليل ليقول لكَ:
ضع خصام النهار جانباً،
لن أتركك تنامُ وفي عينك دمعة!

الخلافات ليست دوماً سيئة يا صاحبي،
على العكس تماماً إنها تُرينا مكانتنا في قلوب أحبابنا،
وهذا أجمل ما فيها!
لا شيء أجمل من أن تكتشف أنك لا تهون ولو كنتَ مخطئاً،
وأن كسر خاطركَ ممنوع،
ولو أخطأتَ أنتَ وكسرتَ خاطره!

يا صاحبي،

إن بين كل حبيبين خيط،

الأحبة الحقيقيون كلما اختلفوا، تشابكَ خيطهم،

فصارَ أكثر متانة!

وهناك أحبة كلما اختلفوا، قطعوا خيط حبهم،

ثم عادوا فوصلوه،

حتى لا يعود خلافاً بعد خلاف خيطاً،

وإنما حبلٌ من العُقد!

يا صاحبي،

كلمات الغزل جميلة في الوفاق،

ولكنها في الخلاف أجمل!

وجبر الخواطر حلو في ساعات الصفاء،

ولكنه أحلى في ساعات الكدر!

وقديماً قالت العرب: من أغضبته فلم يؤذِك

فاتخذه صاحباً،

وأنا أقول لك: اتخذه حبيباً وسنداً!

لا شيء أجمل من أن لا تهون، لا شيء أجمل!

والسّلام لقلبكَ

40

السّلام عليكَ يا صاحبي،

كان لأحد التجار الأثرياء ابنة وحيدة،
مرضَتْ مرضاً شديداً، ودخلت في غيبوبة!
فأحضر لها الأطباء من جميع أرجاء البلاد ولكن دون جدوى،
إلى أن جاء طبيب غريب ذات يوم إلى المدينة،
فحدَّثه الناس عن ابنة التاجر الثري،
فأصرَّ على رؤيتها،
وبعد إلحاح شديد، وافق التاجر لأنه كان قد يئس من شفاء ابنته!
بعد معاينة سريعة، قال الطبيب للتاجر: مرض ابنتك نفسي!
قال التاجر: ماذا تعني؟!
قال له سأريك بعد قليل!
نادى الطبيب على خادمة الفتاة ومرافقتها،
وقال لها قولي أسماءً تعرفين أنها من الممكن أن تكون الفتاة قد أحبَّتْ واحداً منهم،
فبدأت الخادمة بذكر الأسماء بصوتٍ عالٍ ولكن دون جدوى،
حتى ذكرت اسماً فتحركت الفتاة!
قال الطبيب للتاجر: أحضر هذا الشاب بسرعة..
فإذا هو أفقر شاب في المدينة!
يبدو أن الفتاة علمت باستحالة موافقة أبيها عليه،

فأصابها ما أصابها!

فلما دخل عليها وأمسك يدها فتحت عينيها،

وكأنه قد نُفخ فيها الروح!

ليست كل الأدوية تُباع في الصيدليات يا صاحبي!

هناك عيون إذا جلستَ تتأملها ذهبَ الذي بكَ،

وهناك أيدٍ إذا أمسكتها عادت إليك عافيتك،

وهناك أحضان إذا دفنتَ رأسكَ بها شعرتَ بأمانٍ لا يشعرُ به قائد بين جنده المدججين بالسلاح!

صدقني يا صاحبي،

يمكن لحضن صغير أن يكون أكثر الأماكن أمناً على وجه الأرض!

وهناك عناقات تردُّ الروح،

كأن تضم حبيبك إليك بقوة،

وتشمه، وتتفقد كل شيءٍ فيه،

كأبٍ يتفقد ابنته عضواً عضواً بعد عودتها من المدرسة أول مرة!

وهناك أصابع حين تُداعب شعرك لها أثر مسكنات الألم،

وهناك شَعرٌ حين تشمه تشعرُ بشعور الغريق الذي كان يبتلع الماء،

فلما يئس من النجاة انتشله أحدهم،

هكذا تشعرُ كأنكَ تتنفسُ فجأةً

بعد أن ظننتَ أنك موشك على الموت!

هناك ضحكات تردُّ الروح،

عندما ترتسم على الخد الأيمن غمازة صغيرة كأنها علامتي تنصيص،

أو كأنهما فلقتي قمر،

تشعرُ أن كل وجع في جسمك قد تلاشى،

صدقني،

ليست كل الأدوية تُباع في الصيدليات يا صاحبي!

والسّلام لقلبكَ

41

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ينفطرُ قلبي حين أقرأ في كتبِ الحديث
أنَّ صحابياً سأل آخر: من أين؟
فقال له: من عند النَّبي ﷺ
وصحابياً لقيَ صحابياً في الطريق
فقال له: إلى أين؟
فقال له: إلى النَّبي ﷺ
هكذا بهذه البساطة،
وبهذا الجمال،
من عند النَّبي ﷺ وإليه!

وددتُ لو أني آتيه،
فأقولُ له: يا رسول الله، قلبي يؤلمني!
فيمسحُ على صدري، ويُصبرني،
ولعله يقول لي: لا تبتئسْ إنما هي أيام وتمضي!
أو لعله يضعُ يده فوق قلبي ويقول: اثْبُتْ قلب!
فيثبتُ ويطمئن، فقد ثبتَ أُحدٌ حين نادى عليه!

وددتُ لو أني إذا اشتقتُ إليه،
وصدر مني نشيجُ المشتاق،

رقَّ لي كما رقَّ للجذعِ،
فيحتضنني كما احتضَنَه
ثم بعدها، على الدنيا السّلام!

وددتُ لو أني إذا خاصمتُ حبيباً جئته فطلبتُ شفاعته،
فمشى معي يرممُ شرخَ قلبي،
تماماً كما سعى في شوق مغيثٍ حين تركته بريرة،
وقال لها: لو راجعته!

وددتُ لو أثقلني دَيْنٌ فجئته شاكياً،
فمشى معه يستشفعُ المدينين لي،
تماماً كما مشى في دين جابرٍ،
وقال لليهودي الذي له عليه دين: أَنْظِرْ جابراً!

وددتُ لو أساءَ لي صديقٌ فجئته متوجعاً،
فانتصرَ لي، كما انتصرَ لبلالٍ حين قال له أبو ذر: يا ابن السوداء!
فقال له: أَعَيّرتَه بأمه، إنك امرؤ فيكَ جاهلية!
أو لعلي كنتُ يومها عزيزاً على قلبه كأبي بكر،
فغضبَ لي، وقال: هل أنتم تاركو لي صاحبي!

وددتُ لو أني إذا مرضتُ عادني في بيتي،
كما عاد سعد بن أبي وقاصٍ، وربتَ على قلبه!

وددتُ لو أحزنني شيءٌ فواساني،
كما واسى صبياً ماتَ عصفوره!

وددتُ لو أهمني أمر صغير حتى،
فجئته ليخفف عني، ويمشي لي فيه،
كما مشى مع جاريةٍ صغيرةٍ يشفعُ لها عند أهلها،
حين أرسلوها في حاجةٍ لهم فتأخرت عنهم!

وددتُ لو أني سافرتُ معه،
فحرسته بقلبي وعيوني،
فلعله نام على دابته من تعبه،
فأسندته. فقال لي كما قال لأبي طلحة: حفظكَ الله كما حفظتَ نبيه!

وددتُ لو قاتلتُ معه يوم أحدٍ،
لأسبقَ طلحة، وأحني ظهري قبله،
ليدوس عليه ويصعد الصخرة، ثم يقول: أوجبَ أدهم!

وددتُ لو أنها كلما ضاقتْ
مرَّ بي كما مرَّ بآل ياسرٍ،
وقال: صبراً ياسرٍ فإن موعدكم الجنة!
كان ليهون كلَّ شيءٍ عندي وقتها!
حبيبي يا رسول اللّه، كم أشتاقُ إليكَ

والسّلام لقلبكَ

42

السّلام عليكَ يا صاحبي،

كان أحدُ الأساتذة الجامعيين يلبسُ ساعة نسائية،
وكان الطلاب يتندرون عليه في مجالسهم،
حتى كان يوم تجرأ فيه أحدهم وسأله: لِمَ تلبسُ ساعةً نسائية؟
فقال له: هذه ساعة ابنتي المتوفاة!

يا صاحبي،
في كُلِّ إنسانٍ وجع لو كشفه للآخرين لبكوا عليه!
ولكننا نتجالد ونتصبَّر،
لأن نظرات الشفقة في عيون الآخرين موجعة، موجعة جداً!

هذه الحياة معركة طاحنة،
فلا تخدعنَّكَ المظاهر!
خلف الابتسامات التي تراها،
غصات كثيرة يخفيها الناس عن الناس!
ووراء الضحكات دموع،
لو رأيتها لقلتَ:
كيف يضحكُ هذا الذي كاد أن يجفَّ من كثرة ما بكى!

الناس كالجبال يا صاحبي،
ليس في الصلابة، وإنما في الجزء المخفيِّ منها،
يقول علماء الجيولوجيا أن الذي يظهر من الجبل هو ثلثه فقط،
هناك ثلثان مدفونان في الأعماق، وهكذا نحن!
ما نخفيه أكثر مما نظهره،
وأمراضنا ليست من الأشياء التي نأكلها،
وإنما من الأشياء التي تأكلنا!

يا صاحبي،
في كل إنسانٍ وجع مهما أنكره،
وفي كل قلبٍ غصَّة مهما أخفاها!
لا تخدعنَّكَ المظاهرُ،
الأشياء ليست كما تبدو!
الهادىء الذي تحسده على اتزانه،
قد يكون في قلبه نار لا يعلمها إلا الله،
والذي لا يخرج منه الدخان،
لا يعني أنه لا يحترق!
لا العاصي مرتاح بمعصيته،
ولا الطائع ثابتٌ بسهولة!
لا الذي لديه حبيب ممسك به بأسنانه مخافة أن يفقده مرتاح،
ولا الذي في قلبه فجوة لحبيب لم تمتلىء بعد مرتاح!

أخبرتكَ أكثر من مرةٍ عن قصة قرأتها،
عن رجلٍ دخل يوماً إلى عيادة طبيب،
يشكو له وجعاً في جسمه، وانطفاءً في روحه!
فأجرى له الطبيب فحوصاتٍ وأشعة وتحاليل،
فتبين له أن المريض لا يشكو من شيء!
فقال له: إن مشكلتكَ نفسية،
حاول أن تروّح عن نفسك،
اقرأْ، سافرْ، تعرَّف على أصدقاء جُدد!
اسمعْ، لكَ عندي نصيحة،
في المدينة مهرج بارع اسمه كارلينا،
يجعل الناس ينسون همومهم لكثرة ما يضحكهم،
أنصحك بمشاهدته!
فنظر المريضُ إلى الطبيب بعينين دامعتين وقال له:
أنا كارلينا أيها الطبيب!

والسّلام لقلبكَ

43

السّلام عليك يا صاحبي،

تسألني: كيف أسيرُ إلى اللهِ؟
فأقولُ لكَ: سِرْ على أيَّةِ حالٍ كُنتَ،
ركضاً إن استطعتَ،
ومشياً إن عجزتَ،
وحبواً إن خانتكَ خطواتكَ،
وإن عجزتَ عن كلِّ هذا فقِفْ مكانكَ،
ولا تمشِ في طريقٍ آخر بعيداً عنه سبحانه،
فإنَّ الوقوف في الطريق إلى الله مسير إليه!

لا أعرفُ لِمَ خطرَ لي عمرو بن الجموح الآن وأنا أُحدِّثُكَ،
لمعتْ صورته في رأسي كالبرق،
وكأني أراه جاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ يشكو أولاده،
الذين أرادوا منعه من الخروج إلى المعركة لأنه أعرج،
وليس على الأعرج حرج!
ثم قال: واللهِ لأدخُلنَّ بعرجتي هذه الجنَّة،
يا رسول الله: إن قُتلتُ في سبيل الله أمشي برجلي هذه سليمة في الجنَّة؟!
فقال له: نعم!
فلما وقفَ النَّبيُّ ﷺ فوق جثمانه بعد أن استشهد،

قال له مخاطباً: كأني أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنَّة!

وأنتَ ما بكَ من عرجٍ غير الذي في قلبكَ،
فما يضُرُّكَ لو مشيتَ إلى الله بقلبك المثخن هذا؟!
ذنبٌ تُصيبه الآن، استغفِرْ منه!
وتقصيرٌ منكَ اليوم، عوِّضه في الغد!
واعوجاج أحدثته السَّاعة، قوِّمه في أقرب فرصة!
اِمسَحْ دمعةً، فإنَّ اللهَ عند المنكسرة قلوبهم!
واجبُرْ خاطراً، فما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أحسن من جبر الخواطر!
اِربِتْ على كتفِ مكسور،
وواسِ قلبَ مخذول،
وضمِّدْ نزيف مجروح،
هذه الدنيا ساحة معركة يا صديقي،
وقلَّما يسلمُ منها أحد،
والناس عيال الله،
وأحبُّ عباده إليه أنفعهم لعياله!

والسّلام لقلبكَ

44

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقول لي: كان عاماً سيئاً والحمدُ لله أننا نجونا منه،
إن كنت تقصد بالنجاة أننا لم نمت،
فقد نجونا فعلاً!
ولكني لا أفهم النجاة غير أن نجتاز الصراط إلى الجنة!
ما عدا ذلك انتصارات فارغة!

يا صاحبي،
ليس نصراً أن تعيش،
ولا هزيمة أن تموت!
الفكرة في كيف تعيش،
وعلى أي شيء تموت!

لا أدري لماذا وأنا أكتبُ إليك الآن،
خطر في بالي مصعب بن عمير يوم أُحد،
مصعب فتى قريش الوسيم والثري والمدلل،
ممدد على رمال الصحراء بانتظار أن يحفروا له قبراً،
ثم إنهم لم يجدوا له كفناً ساتراً،
كانوا إذا غطوا رأسه انكشفت رجلاه،
وإذا غطوا رجليه انكشف رأسه!

بحسابات الدنيا،

تبدو ميتة كهذه مقارنة بحياة مرفهة سابقة، مجرد نهاية بائسة!

ولكن الحقيقة أن ذلك اليوم كان أسعد أيام مصعب بن عمير!

إن كانت الحياة نجاةً فما أكثر الناجين،

وإن كان الموت هزيمة،

فكلنا سنُهزم نهاية المطاف يا صاحبي!

ما يجب أن نحفل به هو كيف ستكون الليلة الأولى في القبر؟!

روضة من رياض الجنة، أم حفرة من حفر النار!

تخيَّلْ معي بساطة الأمر وتعقيده على السواء!

شهادة الدكتوراة التي تحملها لن تنفعك يومها،

ما لم يكن قلبك قد حفظ جيداً،

درس الصف الأول الابتدائي:

من ربك؟

وما دينك؟

ومن نبيك؟

والسّلام لقلبكَ

45

السّلام عليكَ يا صاحبي،

قال يونسُ الصَّدفي: ما رأيتُ أعقل من الشافعي،
ناظرته يوماً في مسألةٍ فاختلفنا،
فلقيني بعدها، فأخذَ بيدي، ثم قال:
يا يونس ألا يستقيمُ أن نكون إخواناً ولو اختلفنا في مسألة؟!

يا صاحبي،
إن لم أكُنْ معكَ فهذا لا يعني أني ضدك،
ثمة معارك ليس عليَّ أن أخوضها لأنكَ خضتَّها!
وثمة خصوماتٍ أنا غنيٌّ عنها وإن اشتركتَ أنتَ بها!
سامحني، أنا لا أعيش على مبدأ: «معاهم معاهم، عليهم عليهم»،
ولا على مبدأ: مع الخيل يا شقرا!
أنا أختار معاركي بنفسي،
ثم من قال لكَ أنه يجب على الإنسان أن تكون له معركة؟!

يا صاحبي،
لا تُجبرني على أن أرى ما ترى،
كلانا يملك نفس العين، ولكنه لا يملك نفس النظرة!
فلا تجبرني على أن أكون نسخةً منكَ،
ولا أن أصفق لكل قول تقوله،

ولا أن أتبنّى كل رأي تعتقده،
من حقك أن تقول، وتعتقد، ولكن لا تنسَ أنه من حقي كذلك!

يا صاحبي،
إن قلتُ لكَ تريَّثْ!
فأنا لستُ جباناً، وإنما ناصح!
الغضبُ يُعمي،
وصاحب المشكلة لا يراها جيداً لأنه واقع بها!
أحياناً عليكَ أن تبتعد قليلاً لترى الصورة بوضوح،
وتذكَّرْ جيداً:
أنا صديقك ولستُ سيفكَ!
فلا تستعملني في معارككَ حين أكون في غنىً عنها!

يا صاحبي،
في الحق والباطل هناك أسود وأبيض فقط،
أما في الحياة فكل الأشياء رمادية!
في كل خير، هناك شر ولو كان ضئيلاً!
وفي كل شر، هناك خير ولو كان صغيراً!
فلا تجعلْ مواقف الحياة كلها كأنها حرب عقيدة!
تغاضَ قليلاً،
وغُضَّ الطَّرف كثيراً،
وتظاهرْ بأنكَ لم تسمعْ ولم ترَا!

والسّلام لقلبكَ

46

السّلام عليكَ يا صاحبي،

قالوا: عندما تحزنُ تذهبُ إلى أكثر شخصٍ يُحبُّكَ،
وعندما تفرحُ تذهبُ إلى أكثر شخصٍ تُحبه،
ويا لحظكَ لو كان هو نفسه في الحاليْن!

يا صاحبي،
ليس حزناً ذاك الذي تجدُ من يحمله معكَ،
الحزنُ هو أن تبكي،
فلا تجدُ من يمسحُ دمعكَ،
وأن تنكسِرَ،
فلا تجدُ من يُرممكَ،
وأن تجزعَ،
فلا تجدُ من يُطمئنكَ،
وأن تكسرَ الأيامُ قلبكَ،
فلا تجدُ من يقولُ لكَ:
أنا عُكَّازُكَ، فاتكِئ!

يا صاحبي،
ليس فَرَحاً ذاكَ الذي لا تجدُ من تشاركه إياه!

الفرحُ هو أن تنجحَ،

فتجدُ ابتسامة شخصٍ سعيدٍ أكثر منك بنجاحكَ!

وأن ترتقي،

فتجده سعيداً لأنه كان سُلَّمَكَ

وأن تُسلَّطَ عليكَ الأضواءُ،

فيسعد لذلك ولو كان هو العتمة!

يا صاحبي،

لو استغنى أحدٌ عن مشاركة فرحه،

لاستغنى ذلك الذي أخذَ كتابه بيمينه وبُشِّرَ بالجنة،

ولكنه انطلقَ إلى أحبابه وقال:

﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾

والسّلام لقلبكَ

47

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: من هو الحبيب الأول؟
فأقولُ لكَ:
الحبيب الأولُ ليس أول شخص تعطيه قلبكَ،
ولكنه أول شخصٍ لا تستطيعُ أن تستردَّ قلبكَ منه!
الحبيبُ الأول ليس بالضرورة أنه أول شخصٍ يصلُ إليك،
ولكنه الشخص الذي لا يسبقه أحدٌ في قلبك،
وإن وصل الآخرون قبله!

يا صاحبي،
في أحيانٍ كثيرة نحن لا نفهم مشاعرنا جيداً،
إننا نحسبُ الإعجاب حُباً،
ونحسبُ الاعتياد حُباً،
ذلك أن في كل منا فراغ لا يملأه إلا حُبٌّ كبير،
وقبل أن يصل هذا الحُب،
ومن فرط لهفتنا إليه،
نعتقد أن كل حالةٍ شعورية هو هذا الحُب،
ثم ما نلبثُ أن نكتشف أننا لم نكن نُحب،
كنا مُعجبين فقط،
أو ربما نألف بفعل الاعتياد،
أما الحُبُّ فشأن آخر!

الحُبُّ الأول،
هو ذاك الذي تعتقدُ فيه أنك تملكُ زمام قلبكَ وعقلكَ،
ثم تكتشف فجأة أن قلبكَ لم يعد لكَ!
وأنَّ عقلكَ أعجز من أن يشُدَّ قلبكَ من أُذنه،
ويقول له: تريَّثْ قليلاً!
ستجدُ نفسكَ مندفعاً كحصان في سباق الخيل،
لا يرى الجمهور رغم كثرته،
ولا يحسب حساباً لشبَّاك التذاكر والمراهنات،
كل ما يعنيه أن يصل إلى وجهته!

الحُبُّ الأول،
هو ذاك الذي يُخبركَ
أن كل مشاعر حب قد شعرتَ بها من قبل،
كانت طفولية وغير ناضجة!
وأنَّ هذا أوان قلبكَ ليعرف الحُبَّ لأول مرة،
تعيشه بدهشة طفلٍ لم يرَ المطرَ من قبل،
يشعرُ بلذة البلل وينظر إلى السماء،
يريدُ أن يعرف من أين يسقط المطر،
وعندما لا يفهم السبب لا يحزن كثيراً،
روعة البلل ستغنيه عن شغف المعرفة!

يا صاحبي،
الحُبُّ الأول يأتي صاخباً،

يحملُ في يده معولاً،

يحفرُ حفرةً كبيرة،

ويضع كل مشاعرك السابقة فيها،

ثم يهيل عليها التراب،

ويقول لكَ: أنا هنا أخيراً،

فعِشني بكلِّ شغفكَ!

والسلام لقلبك

48

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ما ليَ أرى انكساراً في صوتكَ وحزناً في عينيكَ؟
أتحسبُ أنكَ لستَ من الصالحين،
لأنَّ لكَ ذنباً عجزتَ أن تتخلصَ منه؟
وأنكَ تتوب ثم تعود لتقارفه،
من قال لكَ أنه ليس للصالحين ذنوب؟
ومن قال لكَ أنهم ليسوا في حربٍ مستعرةٍ؟
تارةً مع الشيطان، وتارةً مع أنفسهم،
فيربحون مرَّةً، ويُهزمون مرَّةً،
كل الصالحين كذلك يا صاحبي،
ولكن الله تعالى لحبّه لهم أرخى عليهم ثياب ستره!

يا صاحبي،
اقرأْ قول ربِّكَ:
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾
أتحسبُ أنَّ كل الجهاد هو سيفٌ وترس؟
إن قتالكَ لتحافظ على نقاء قلبك، هو جهاد!
سيكتُب الله تعالى لكَ أجر صراعك مع الذَّنب،
وحزنك بعد المعصية،
ونهوضك بعد الانتكاس،

واستغفارك بعد الخطيئة،
كل هذا جهاد في سبيل اللّه،
ويهديك اللّه بعد كل هذا إلى سواء السبيل!
هذا وعد من اللّه،
ولا أحد أوفى بالعهدِ من ربكَ!

كل الناس مذنبون يا صاحبي،
الصالحون والطالحون على حدٍّ سواء،
ولكن الصالحين يستترون ولا يُجاهرون،
يستغفرون ولا يُصرِّون،
ويعترفون ولا يُبررون!

يا صاحبي،
إن النَّدم بعد الذنب صلاح،
والدمعة بعد المعصية صلاح،
والاستغفار بعد الخطيئة صلاح،
ما دمتَ تشعرُ بمرارة الذنب فأنتَ صالح،
وما دمتَ تشعرُ بالوحشة عند ابتعادكَ عن اللّه، فأنتَ صالح،
فالسيئون لا يشعرون بكل هذا!

والسّلام لقلبكَ

49

السّلام عليكَ يا صاحبي،

نحن مدينون للصِّعاب لأنها تصنعنا!
فكل ضربةٍ لا تقتلكَ، تُقوِّيكَ وتُكسبكَ مناعةً!
اللقاحات التي يعطونها للأطفال هي عبارةٌ عن مرضٍ مُخفف،
إنهم يجعلون أجسادهم تتعرف على هذه الأمراض،
فإذا أُصيبوا بها فعلاً فيما بعد،
كانت أجسادهم قوية في محاربتها،
وهكذا هي الحياة كل لكمةٍ تُسددها لكَ،
تجعلُكَ أصلب بِنيةً، وأكثر عزيمةً!

يا صاحبي،
رُبَّ لكمةٍ آذتكَ،
ولكنها كشفتْ لكَ مكامن القوة فيك،
وقد كنتَ تحسبُ نفسك قبلها هشّاً،
ورُبَّ غدرٍ أيقظكَ من غفوتكَ،
فقررتَ أن تتوقفَ في منتصف الطريق،
ولولاها لكانت النهاية موحشة حيث لا يمكنك العودة بعدها،
ورُبَّ مصيبةٍ نزلتْ بكَ،
فأرتكَ الناس المحيطين بكَ على حقيقتهم!
فترى الذين كنتَ تحسبهم كتفاً وسنداً أول من أفلتوكَ،

وترى الذين لم تكن تُعوِّلُ عليهم كثيراً،
أول من تشبثوا بكَ، وهمسوا لكَ:
لا تخفْ نحن هنا لأجلكَ!
رُبَّ موقفٍ مؤلم أكسبكَ حكمةً،
لم تكن لتتعلمها في أيام الرخاء،
للأسف يا صاحبي، الغدر أفضل مدرسةٍ نتعلم منها!

رُبَّ خُذلانٍ أوجعكَ،
ولكنه في المقابل أزاح أشخاصاً من قلبكَ،
ليأتيَ إليكَ الذين يستحقونك فعلاً!

رُبَّ معركةٍ هُزمتَ فيها،
ولكنها في المقابل أخبرتكَ أن الجنود الذين كنت تُراهن عليهم من ورقٍ،
صدِّقني أن تعرف الأشياء على حقيقتها،
أقل وجعاً من أن تبقى مخدوعاً على الدوام!

يا صاحبي،
إن البحار الهادئة لا تصنع بحارين ماهرين،
والجنود الحقيقيون لا يظهرون في معسكرات التدريب،
وإنما يولدون من رحم المعارك!
فكُنْ مديناً لعاصفةٍ هوجاء أنضجتكَ،
ولمعركةٍ طاحنةٍ أيقظتكَ!

والسّلام لقلبكَ

50

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: ماذا أفعلُ وقد وصلت الأمور إلى طريقٍ مسدود؟!
فأقول لكَ:
في العلاقات لا يوجد طريق مسدود،
هناك دوماً منفذٌ ما نعبرُ منه!
لتأخذ العلاقة شكلاً آخر غير الذي هي عليه الآن،

فإما أن تعود أقوى مما كانتْ عليه،
فبعض العلاقات كخيطان الصوف،
كلما ازدادت تشابكاً ازدادت متانة!
ونحن مدينون للخلافات أحياناً،
لأنها تُرينا حجمنا في قلوب الآخرين،
وترينا حجم الآخرين في قلوبنا!

وقد تصبحُ علاقة فاترة جداً،
لا هي بالحيَّة ولا بالميتة،
تماماً كالمريض الميّت دماغياً،
فلا هو مع الأموات فيُدفن،
ولا هو مع الأحياء فيقوم!

وقد تنتهي العلاقة إلى الأبد،

وهذا بحد ذاته منفذ،

فإن قيل لكَ أن الحياة لا تقِفُ على أحدٍ فصدِّقْ!

وصدِّق أيضاً أنه ليس المهم الحياة،

وإنما طعمها يا صاحبي،

فتشبّث بأولئك الذين يجعلون لحياتك طعماً!

يا صاحبي،

كل العلاقات تُصاب بلحظة فتور،

وهذا لا يعني نهايتها،

إنها استراحة المحاربين من وعثاء الحياة،

أحياناً نحن نحتاج هذه المساحة والمسافة من الفتور،

لننطلق أقوى من قبل!

اُنظر للسهم في يد الرامي،

كيف يضعه في كبد القوس،

ويرجعه بقوة شديدة إلى الوراء، ثم يقذفه،

فينطلق سريعاً وثاقباً وواثقاً من مسيره،

لولا هذا التراجع ما كان له هذه القوة،

والعلاقات كذلك!

والسّلام لقلبكَ

51

السّلام عليكَ يا صاحبي،

كان من عادة النبيِّ ﷺ إذا انتهتْ المعركة
أن يقول لأصحابه: هل تفقدون أحداً؟!
وبعد انفضاض إحدى المعارك قال كعادته:
هل تفقدون أحداً؟
فقال الصحابة: لا
فقال لهم: ولكني أفقدُ جليبيباً!
فبحثوا عنه، فوجدوه في القتلى
إلى جانب سبعةٍ من المشركين قد قتلهم ثم قتلوه!
فوقف النبيُّ ﷺ عند رأسه وقال:
قتل سبعةً وقتلوه، هذا مني وأنا منه!
ثم وضعه على ساعده ريثما يُحفر له قبرا!

إنه جُليبيب يا صاحبي،
كان دميم الوجه، مدقع الفقر،
هكذا تقول حسابات الناس،
أما عند اللهِ فهناك حكاية أخرى،
كان ناصع القلب، ثري الإيمان!
وكان آخر عهده بالدنيا أن يتوسد ساعد النبي ﷺ ريثما يحفرون قبره،

يا لهذه النهاية، ويا لآخر العهد بالدنيا،
فاللهم حُسن الخاتمة!

يا صاحبي،
لم تكن القضية يوماً قضية وجوه،
وإنما قضية قلوب،
الوسامة الحقيقية في الروح،
هذا الدفء في المعاملة،
الحنان في التعاطي،
اللين في الكلام!
ولم تكن القضية يوماً في الجيوب،
وإنما في القلوب أيضاً،
الثراء الحقيقي في الروح،
هذا الإيمان الراسخ رسوخ الجبال،
فلا تهزه حوادث الليالي،
وهذا اليقين الشامخ الذي لا تُركعه تقلبات الأيام!

والسّلام لقلبكَ

52

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني على استحياءٍ: إلى أي مدىً تُشبه أنتَ كلماتك؟
فأجيبك بمرارة:
إني أُقاتل كي يُشبه فعلي كلامي،
ولكن يحدث كثيراً أن أفشل!
وصدقني مرَّتْ عليَ لحظات كثيرة،
فكرتُ فيها أن أتوقف عن الكتابة،
فعزّاني الحسنُ البصري بقوله:
لو لم ينصح الناس إلا من يعمل بنصحه،
ما نصحَ الناس أحدٌ!
فشددتُ أزري، وعدتُ إلى حربيَ القديمة،
أحاول في الحياة أن أُشبهني على الورق،
وكنتُ كلما نجحتُ سعدتُ،
وكلما فشلتُ انكسرتُ،
فعزّاني الخطيب البغدادي في تاريخه،
فقد حكى عن إمام الحرم يوسف بن الحُسين الرازي،
أنه رُئيَ في المنام بعدِ موته،
فقيل له: ماذا فعلَ اللّه بكَ؟
فقال: غفرَ لي
فقيل له: بماذا؟

فقال: بكلماتٍ قلتها عند الموت!

قلتُ: اللهم إنّي نصحتُ الناس قولاً وخنتُ نفسي فعلاً،

فهبْ خيانة فعلي لنصيحة قولي!

يا صاحبي،

لا يجمعُ العاقل قبيح الفعل وقبيح القول،

فإن سرقتَ، فلا تقلْ إن السرقة حلال!

وإن غششتَ فعلاً، فلا تغشَّ قولاً!

وقاتل دوماً لأجل أن يُشبه قولك فعلك،

فإن الحياة معركة مستمرة،

مرة تنتصر، ومرة تُهزم!

وكلنا مثقوبون بالعيوب لولا ستر اللّه!

والسّلام لقلبكَ

53

السّلام عليكَ يا صاحبي،

آلمتني هذا اليوم جداً بتصرفك،
ربما لو الأمر من غيركَ لهانَ عليَّ!
ولكن ضربة الصديق مضاعفة،
وطعنة الحبيب موجعة أكثر،
أتعرفُ ما هو أسوأ شيءٍ في خصام الأحبة؟
هو أننا مكشوفون تماماً، ونقاط ضعفنا ماثلة للعيان!
لهذا الأحبة -أو من كانوا كذلك- أقدر الناس على إيلامنا،
لأنهم يعرفون أين يُسدّدون ضرباتهم بالضبط!
في مكمن الوجع يا صاحبي، في مكمن الوجع!

أتعرفُ يا صاحبي ما هو المؤلم أكثر من الضربة؟
وما هو موجع أكثر من الطعنة؟
إنها الخيبة!
أن تحسبَ أنك في مأمنٍ، فتكتشف أنك في مرمى النار!
وأن تعتقد أنك في منعةٍ، فتجد أنك هُنتَ!
الجرح يلتئم، ومكانه يشفى،
ولكن الخيبة ستبقى تنزُّ إلى الأبد!

يا صاحبي،

أنا لست منزعجاً منكَ،
وإن كان الإنزعاج أقل واجب!
ولستُ غاضباً أيضاً،
وإن كان الغضبُ شعور طبيعي في موقف كهذا،
ولكني موجوع، موجوع جداً!
تؤلمني فكرة أن حسبتُ أني أحفظك عن ظهر قلب،
فأكتشفُ أنك كغريبٍ ألقى عليَّ التحية في مطار ومضى!
لا أعرفه، ولا يعرفني!

يا صاحبي،
ما أقسى أن يصبح الأحبة غرباء!

والسّلام لقلبكَ

54

السّلام عليكَ يا صاحبي،

إياكَ أن تعتقدَ أني ساذجٌ
وأنه قد تمَّ خداعي!
صدقني، كنتُ أعرفُ أني سأصلُ إلى هذا القدر من الخيبة،
منذ أول خطوةٍ خطوتها في هذا الطريق!

يا صاحبي،
يحدثُ أن ترى الثقب في سفينة أحدهم،
وهي واقفة في المرفأ قبل أن تخطو في البحر خطوة واحدة،
ولكنكَ تُغامر وتركب،
ممنياً نفسك أن الحُبَّ يستطيعُ
أن يسُدَّ كل الثقوب حتى لو كانت في السُّفن!
فينتهي بكَ المطاف بثقبٍ في قلبك!

يا صاحبي،
يحدثُ أن تعرف أنَّ كتف أحدهم لا يصلح إلا لحمل الجنائز،
ولكنكَ تتكئ على كتفه معتقداً أن الحُبَّ يُقوِّم القلوب لا الأكتاف فحسب،
ولكن ينتهي بك المطاف جثةً هامدة،
على كتفٍ كنتَ تعرفُ أنه لا يحسنُ غير هذا!

يا صاحبي،

يحدثُ أن ترى شراسةً منذ الخطوة الأولى،

ولكنكَ تُتابع سيركَ وتقولُ في نفسك:

إنه بالحُب وحسن المعاملة!

يستطيعُ الإنسان أن يُروِّضَ الحيوانات المفترسة،

فتكتشفُ أن ترويض الحيوانات أسهل من ترويض الناس،

وينتهي بك الأمر فريسةً مضرجةً بدمائها!

يا صاحبي،

نحن لم نكن عمياناً منذ البداية،

ووالله لم نكن ساذجين،

نحن فقط آمنا أن الحُبَّ يصنعُ المعجزات!

والسّلام لقلبكَ

55

السّلام عليكَ يا صاحبي،

لطالما كان الاعتذار دليل تحضُّرٍ ورُقيٍّ،
ولكن ليست كل المواقف يصلحها الاعتذار!
الاعتذار عندما تدوس قدمي بغير قصد،
لا عندما تدوس قلبي!
وعندما تكسرُ لي كوباً أو قلماً أُحبه،
لا عندما تكسرُ خاطري!
وعندما تجرح غلاف كتاب عزيز عليَّ أعرتُكَ إياه،
لا عندما تجرحُ لي كرامتي وقد أمنتك عليها!

يا صاحبي،
هناك أخطاء لا تصلحها كلمة آسف!
فأحياناً يكون الجرح أكبر من الاعتذار،
والطعنة أعمق من المفردات،
والكسر أعقد من أن تصلحه جبائر العالم كله،
هناك أخطاء لا تُغتفر،
كأن تدوس على موضع ألمي، وأنتَ تعلمُ أن هذا سيوجعني جداً،
وكأن أبوح لكَ بسرٍّ كدتُ أن أخفيه عن نفسي،
فأجدكَ تحاربني به،

وكأن أصحبك إلى أعمق نقطةٍ فيَّ،
فأجدكَ قد عثتَ فيَّ فساداً!

يا صاحبي،
بعض المواقف لا يمكن إصلاحها،
والماء لا يعود دوماً إلى مجاريه،
وإن عاد فسيبقى إلى الأبد آسناً،
ولا أحد يرغبُ أن يشربَ ماءً آسناً ولو ماتَ من العطش!
فلا تعتذر مني،
حيث تكون سكّينك ما زالت تقطرُ من دمي!
صدقني،
أن ترحل بصمتٍ فهذا أجدى لي ولكَ!
لا تعتذر،
وقد أحدثتَ في قلبي فجوةً لن يملأها كل كلام الغزل الذي لا روح فيه!

يا صاحبي،
لا تعُدْ إليَّ بعد أن كنتُ في يدكَ وأفلتني!

والسّلام لقلبكَ

56

السّلام عليكَ يا صاحبي،

بعضُ البشر لا يتكررون،
يأتون مرةً واحدة في العمر كيوم الولادة!

مرَّةً واحدة في العمر، تلتقي بالشخص الذي
تجلسُ أمامه ولا تعرف من أين ستبدأ،
فيقولُ لكَ: لا عليكَ، أعرفُ ما تريدُ أن تقوله دون قوله!
تخونك مفرداتك وينقذكَ هو!

مرةً واحدة في العمر، تلتقي بالشخص الذي
تتصرفُ معه بحماقةٍ بالغة،
ثم يؤنّبك ضميرك فتأتيه معتذرًا،
وقبل أن تنبس ببنتِ شفةٍ يقولُ لك:
لا عليكَ، أعرفك تماماً أنتَ لستَ إنساناً سيئاً،
وإنما كنتَ تمرُّ بظرفٍ سيءٍ فقط!

مرةً واحدة في العمر، تلتقي بالشخص الذي
تضيقُ بكما الظروف فتريدُ أن تتركه،
فتجده ممسكاً بيدك ويقولُ لكَ:

لن أدعكَ ترحل لقد تعبتُ كثيراً حتى عثرتُ عليك!

مرةً واحدة في العمر، تلتقي بالشخص الذي
بينك وبينه ألف جدار وجدار،
وحين تتعبُ أنتَ من التسلق،
تجده ما زال يتخطى الجدران لأجلك،
ويقول لكَ: كل شيءٍ هيّنٌ ما دمتَ معي!

مرةً واحدة في العمر، تلتقي بالشخص الذي
تريدُ أن تتركه مخافة أن تؤذيه،
فتجده يقول لكَ: ابقَ معي!
إن نار قربك ألذّ عندي من جنة بعدك!

مرة واحدة في العمر، تلتقي بالشخص الذي
لا يُشبه أحداً، ولا يُشبهه أحد،
فلا تضيّعه!

والسّلام لقلبك

57

السّلام عليكَ يا صاحبي،

لعلَّكَ تحسبُ أني أهجوكَ أحياناً؟
لا واللّهِ ما أفعل، وإنما أعاتبكَ!
الهجاء للأعداء...
أما العتاب فللأحبة!
وأنا واللّهِ أحبك!
ومهما حدث بيننا تذكر جيداً،
أنتَ مسموح أن لا تكون من بين أحبابي،
ولكنه ممنوع جداً أن تكون من بين أعدائي!
ليكون هناك عداء لا بُدَّ من مواجهة،
وأنتَ أجلُّ عندي من أن أواجهك!

إن غضبتَ مني، لرفعتُ قميصي عن صدري، وقلتُ لك: اقتصَّ كما يحلو لكَ
ولكن رفقاً بهذا القلب فليس فيه غيرك!

وإن بكيتَ بسببي يوماً،
لأتيتُكَ معتذراً وقلتُ لكَ:
جُعلتُ فداكَ، وإن عيناً أضحكتها كثيراً،
ليعزَّ عليَّ أن أُبكيها،

وها أنا أمامكَ، قصاصُكَ مني غزل،
وعتابك لي غزل!

يا صاحبي،
قالت العربُ قديماً:
من عاتبكَ فقد استبقاك!
وأنا حين أعاتبك، فإني أريدكَ أن تبقى!
لا تخفْ مني حين أعاتبُكَ!
خَفْ مني حين أكفُّ عن عتابكَ!
أو دعني أقول لكَ: لا تخفْ مني أبداً!
أنتَ دوماً في مأمنٍ معي،
عزيز على قلبي،
في وصلك وجفوتك،
في قربك وبعدك،
في غضبكَ ورضاكَ،

والسّلام لقلبكَ

58

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني عن السعادة فتقول: متى أصِلُ إليها؟
فأقول لكَ: السَّعادة ليست محطةً تصِلُ إليها،
وإنما طريقٌ تمشي فيها!

يا صاحبي،
غيِّر نظرتكَ للعالم،
يتغيَّرُ العالم في نظرك!
عندما تبحثُ عن السعادة خارج قلبكَ،
فستبقى تبحثُ عنها إلى الأبد!
وعندما تبحثُ عنها في قلبكَ،
فستجد أنك قد عثرتَ عليها كما يتعثرُ المرءُ بضالته!
سعادتُكَ تبدأ منكَ أنت وليس من الآخرين!

صحيح أن الإنسان لا يعيشُ وحده على ظهر هذا الكوكب،
وأن الناس لا يستغنون عن الناس،
ولكن ما أعنيه أن تكون أنتَ سيد حياتكَ،
تعيشُ لأجل مبادئك، ولو رآها الناس رثةً!
ولا تنحني أمام رياح التغيير،
إن كنتَ تعرفُ أنها ستغيِّركَ للأسوأ!

يا صاحبي،
ما ضرك انحناء الناس ما دمتَ ثابتاً،
وما نفعكَ ثباتهم لو انحنيتَ!
احترامك لنفسك شأن شخصي،
لا علاقة للآخرين به،
وأن تعرف هذا، فقد عرفتَ أول خطوات السعادة!

يا صاحبي،
لا تكُنْ حسوداً،
إن الحسدَ لا يُفسِدَ النعمة في أيدي الآخرين،
ولكنه يُفسِدَ نِعمكَ أنتَ في نظركَ!
فانظُرْ دوماً إلى ما في يدك،
تجده كثيراً!
ولا تنظُرْ إلى ما في أيدي الناس،
لأنك ستزدري كل ما في يدك،
ولا سعادة إلا لقانع، فاقنعْ تَسعَدْ!

يا صاحبي،
لا تتحسرْ على الماضي،
الماضي لنتعلمَ منه الدرس فقط،
لا لأجل أن نعيشَ فيه!
لا تسمحْ للذي ذهبَ عنكَ أن يذهبَ بكَ!
ولا للذي غدركَ أن يُغادر بكَ!

كُنْ مديناً لكل صفعةٍ لأنها أنضجتكَ.

ولكل خداعٍ لأنه علّمكَ أن لا تُفرط الثقة،

ولكل تعثرٍ لأنه علمكَ كيف تقِفُ مجدداً،

طيُّ صفحة الماضي لا يعني أنك نسيته،

وإنما يعني أنكَ لن تسمحَ له أن يتحكم بكَ،

وهذا من السعادة، فاطوِ الصفحة!

يا صاحبي ،

لا تكُن هشاً،

تبكي من كل خدشٍ،

وتسقُط من كل ضربة،

وتتشكى كالأطفال من كل موقف،

تجلَّدْ، وتعلم كيف تنهضُ بنفسكَ كل مرّةٍ!

وأن تتقبل جراحكَ على أنها تذكاراتٍ من أيام صعبةٍ عجزتْ أن تقتُلك،

في الصلابة سعادة، فكُن صلباً!

يا صاحبي،

السعادة لا تعني أن تُحقق إنجازاتٍ خارقة،

أشياء بسيطة تصنعُ السعادة فلا تستصغر نفسكَ!

في رضا أبويك سعادة لو تلذذت بها،

وفي استغفارك من الذنب سعادة لو تأملته،

وفي الطاعة سعادة لو عشتها بقلبك،

وفي الدمعة التي تمسحها، والخاطر الذي تجبره، واليد التي تمدها سعادة!

السعادة ليست معجزاتٍ وخوارق،

السعادة إنجازات صغيرة بحب، فأحبَّ نفسكَ!

والسّلام لقلبكَ

59

السّـلام عليكَ يا صاحبي،

عليكَ أن تتعلمَ أن إفلات الأشياء أحياناً،
يحتاج إلى قوةٍ أكبر مما يحتاجه التمسك بها!
نحن نخافُ إفلاتَ الأشياء،
لأننا نخافُ على أنفسنا كيف سنبدو بدونها..
ولكن صدقني متى ما قررتَ أن تُفلتَ يدكَ،
ستشعرُ بقوةٍ لم تشعر بها من قبل!
وبسعادةٍ عارمة ما كنتَ تظنُّ أنك ستجدها،
والسبب أنك لأول مرةٍ اخترت نفسك!

يا صاحبي،
من أرادكَ، لن يمتحن صبركَ في كل مرةٍ!
لهذا ثِقْ أن كل الذين دفعوك إلى اتخاذ قرار الرحيل،
كانوا يريدون منكَ أن ترحل!
ولكن الناس أحياناً لا يريدون أن يكونوا أول من يُغادر،
إنهم في كل مرةٍ يضعون المقصَّ بيدكَ،
فاقطعْ هذا الحبل الواهي وتحرر!

يا صاحبي،
أن ترحل بكرامتك،
أجدى لكَ من أن تبقى ذليلاً!

لا شيء يبقى للمرء إن هو خسر كرامته،
فميِّزْ جيداً، بين الذي يُحاربُ معكَ،
وبين الذي يُحاربكَ!
لا تتخلَّ عن الأول، ولو تقطعتْ شرايينك وأنتَ تمسكه!
ولا تتمسكْ بالثاني، ولو حسبتَ في التَّرك هلاككَ!
يا صاحبي،
تمرُّ بالإنسان لحظات،
يُدركُ كم كان ساذجاً،
فلا بأس بهذا الشعور،
ما دمتَ عرفتَ موقعكَ أخيراً!
وتمرُّ بالإنسان لحظات،
يُدركُ كم كان مندفعاً حين كان عليه التريث!
ولا بأس أيضاً،
ما دمتَ قد عرفتَ أخيراً!
وتمرُّ بالإنسان لحظات،
لا يغفرُ فيها لنفسه لأنه سمح للأخطاء أن تتكرر!
ولكن لا بأس، أن تعرف أخيراً خير من أن تبقى مغفلاً!

يا صاحبي،
يصل الإنسان أخيراً إلى قناعة
أنه يجب أن لا يخوض هذه المعركة الخاسرة أكثر،
وأنه قد آن الأوان أن يختار نفسه!
فاخترْ نفسك!

والسّلام لقلبكَ

60

السّلام عليكَ يا صاحبي،

يقولون لكَ: لقد تغيّرتَ!
للأسف الناس لا يرون إلا النتائج،
ولكن لا أحد ينظرُ إلى الأسباب!

لا أحد يعرفُ أنَّ هذا الإنسان البارد الذي صرته،
نتيجة احتراقات كثيرة،
لم يكن غيرُكَ شاهداً عليها!
وأن الذي يده في النار، ليس كالذي يده في الماء!
لا أحد يعرفُ هذا الإنسان الحَذِر الذي صرته،
نتيجة غدراتٍ كثيرة، لم يتحسسها غيركَ!
وأن المطعون والرائي، ليس وجعهما واحداً،
وأن النائحة الثكلى، ليست كالنائحة المستأجرة!
وقد ثُكلتَ فكيف لا تتغيَّر!

لا أحد يعرف أنَّ هذا الإنسان المنعزل الذي صرته،
نتيجة ثقاتٍ مفرطة انقلبتْ خيباتٍ،
لم يتجرع مرارتها إلا أنتَ!
وأن متجرع العلقم ليس كساكبه،
وأن صاحب العزاء ليس كالمُعزِّي،

وأن المريض الموجوع ليس كزائره،

وأن الشجرة لا يبقيها الفأس شجرةً،

وإنما جثة هامدة من الخشب!

فكيف لا تتغير؟!

والسّلام لقلبكَ

61

السّلام عليكَ يا صاحبي،

بعثَ النَّبيُّ ﷺ معاذ بن جبلٍ إلى اليمن، وخرج معه يوصيه ويودعه...
معاذٌ راكب على دابته، والنبي ﷺ يمشي ويوصيه!
ثم لما فرغ من الوصية قال له:
يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، لعلكَ أن تمرَّ بمسجدي وقبري!
فبكى معاذ!

وها أنا الآن أبكي يا صاحبي،
يا للمشهد ما أقساه، تخيله وقد نُزعت الروح الشريفة من الجسد الطاهر،
وها هو الآن مسجىً في كفنه،
وقد حُفر له في حُجرة عائشة، هكذا هم الأنبياء يُدفنون حيث يموتون!
يُلحدونه كما أوصى، ويهيلون عليه التراب!

يا لحظ الحُجرة تضمُّ طهارة الكون كله،
فيا ليتَ قلبي كان تلك الحُجرة!
يا ليتني كفناً لامس جسده،

أو حبة تراب غطّته ليستريح من مشقّة الدعوة، ووعثاء الطريق!
يا ليتني كنتُ باب الحُجرة لأقف أبد الدهر حارساً عند قدميه!

يا صاحبي كلما فقدتَ عزيزاً فتعزَّ بسيِّدك،
لا أعزّ منه ولا أغلى،
ألا وإنّ الدنيا كلها لا تساوي شسع نعله!
وقد ضمه نهاية المطاف قبر!

والسّلام لقلبكَ

62

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تشكو إليَّ النَّاسَ فلا تجِدُ عندي عزاءً على غير عادتي!
تكتشفُ أني أشكو مما منه تشكو!
ولكن لا بأس أن يُسامر المجروح مجروحاً مثله،
فلا يفهمُ طعم جرحكَ إلا من ذاقه،
ولا يعلمُ وجع الطَّعنةِ إلا من جرَّبها!

ثم يقولون لكَ: لقد تغيَّرتَ يا صاحبي!
والحقيقةُ أنكَ ما تغيَّرتَ وإنما فهمتَ،
فتخلَّيتَ عن سذاجتكَ القديمة وطيبة قلبكَ،
تلكَ التي منحتها لمن لا يستحقها!
ستصبحُ في عيونهم لئيماً فقط، لأنكَ قررتَ أن تعيشَ لنفسكَ!
وستصبحُ في عيونهم قاسياً فقط، لأنكَ توقفتَ عن تقديم التنازلات!

مشكلة الناس يا صاحبي أنهم يعتبرون كل معروفٍ أدّيته لهم هو حقهم عليكَ!
وكل صبرٍ صبرته عليهم هو واجبك،
وكل احتمالٍ احتملته وقلبك يحترقُ إنما هو رضاك!
لا يعرفون أنَّ المرءَ يُحاولُ جاهداً أن لا يقطعَ شعرةً بينه وبين الناس،

ولكنه يجد نفسه في لحظةٍ واحدةٍ قد سئمَ كل هذا!

يا صاحبي تعلَّمْ لمن تُعطي،
العطاءُ للئيمِ يعلّمه استغلالكَ،
والتسامح معَ الساقط يعوّده الاستخفاف بكَ!

يا صاحبي لا تعِشْ على مزاج أحدٍ،
ولو كلَّفكَ الأمرُ أن تكون صديقاً لجدران غرفتك!
ولا تستمر في تقديم التنازلات،
لمن لا يفهم أنك تفعل هذا، لأنكَ تريدُ الاحتفاظ به!
لا تكُن عكازاً للئيم تعرفُ أنه متى استطاع أن يمشي دونكَ سيكسرك!
ولا تكن كتفاً لأناني تعرفُ أنه يضعُ نفسه دائماً أولاً!
أمّا من مشيتَ نحوه خطوة فمشى نحوكَ مثلها،
ومن مددتَ إليه يدكَ فتشبَّثَ بها،
ومن ساندته فتحيَّنَ الفرصة ليسندك،
ومن لم يهُنْ عليكَ وأنت تعرفُ بالمقابل أنكَ لن تهون عليه،
فعُضَّ عليه بنواجذكَ، فهؤلاء نادرون يا صاحبي ولا تُقابلهم كل يوم!
أما مع البقية فتخفّفْ، بعضهم ليسوا إلا أحمالاً زائدة!

والسّلام لقلبكَ

63

السّلام عليكَ يا صاحبي،

يا للإيمان ما يفعلُ بالنَّاس،
إنه يقلبُ العبدَ سيداً، والسيد عبداً،
كان بلال بن رباح عبداً عند أُمية بن خلف حتى اللحظة التي آمن فيها،
وطرحه أُمية على رمال الصحراء،
صار بلالٌ هو السّيد، وأُمية هو العبد،
كان بلال مملوكاً بجسده، حُراً بقلبه!
وأُمية حراً بجسده، عبداً بقلبه،
وما المرءُ إلا بقلبه!

وكانتْ ماشطة ابنة فرعون أَمَةً مملوكة.
وكان فرعون مَلِكاً بالعرف السياسي لأهل مصر،
وإلهاً بالعُرف الديني،
فلما حصلتْ بينهما المواجهة انقلبت الأدوار!
صار فرعون هو العبد، والماشطة هي الملكة،
ألقى أولادها في الزيت واحداً تلو الآخر،
وفي كل مرةٍ يسألها سؤالَ العبد الذليل: من ربكِ؟
فتجيبه إجابة الملكة: ربي وربك اللّه!
كان فرعون يملكُ جسدها، أما قلبها فكان لها،

وما المرءُ إلا بقلبه!

يا صاحبي،
لا تحسبنَّ أن بلالاً والماشطة نماذج من التاريخ طواها الزمن،
في كل زمن هناك بلال وماشطة،
بعضهم يُردد: أحدٌ أحد!
وبعضهم يُردد: ربي وربكَ اللّه!

سأروي لكَ قصةً ماتعةً يا صديقي، فاسمعْ!
منذ أربع سنواتٍ استقدمتُ عاملة منزليةً من أثيوبيا اسمها بورتيكان،
كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وعلى دين النصارى،
ولما لاحظتُ فيها شيئاً من التَّدين،
قلتُ لها: إن كنتِ تريدين الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد،
فأنا مستعدٌ أن أوصلكِ ثم أعود لاصطحابكِ بعد أن تنتهي من صلاتك.
فقالت لي: لا، ولكن هل يمكن أن أصوم؟
قلتُ لها: بالطبع!
وطلبتُ من زوجتي أن تُعِدَّ لها طعاماً لائقاً بصائم تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً،
فهكذا هو صومهم!
كانت طيبة جداً،
وكنا لها أهلاً،

نُعاملها كأنها ابنتنا من لحمنا ودمنا،

حتى أنها كانت تناديني: بابا،

وتنادي زوجتي: ماما،

وكان أولادي يُعاملونها كأنها أختهم.

إذا ذهبنا إلى المطعم تجلس معنا على الطاولة كأنها ابنتي فعلاً!

وإذا اشترينا ثياباً للأولاد، اشترينا لها ثياباً بنفس السعر.

حتى حين كنتُ أعطي أولادي مصروفهم كنتُ أعطيها مثلهم!

لم أحدثها أن دينها خطأ، ولم أدعها إلا الإسلام حتى!

وكنتُ كل يوم أعطي أولادي درساً في رياض الصالحين،

ولم أطلب منها ولو مرةً واحدة أن تجلس معنا،

ولكنها في الليل كانت تسأل ابنتي فاطمة عن ديننا، فقد كانت تنام مع البنات في غرفتهم،

ومضى عامان والأمر كذلك،

وفي العام الثالث، وقبل رمضان بأسبوع،

قالت لي: بابا، أريد أن أقول لك شيئاً!

قلتُ لها: تفضلي

فقالت لي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله!

وصامت معنا رمضان كله، وكانت تصلي معنا التراويح في البيت بحكم أننا كنا في الحجر الصحي بسبب أزمة الكورونا والمساجد مغلقة،

كانت تُحافظ على الصلاة بشكل عجيب، حتى أنها كانت تُذكّر أولادي بها،

ثم انتهى وقت عملها عندنا، وأرادت أن تُغادر إلى بلدها إلى غير رجعة!

كنتُ أعرفُ أنها ستلقى هناك معارضةً شديدة،

وما تفعلُ فتاةٌ في مواجهة عائلة كاملة والأمر يتعلقُ بالدين؟!

لهذا أعددتُها مسبقاً لهذه المواجهة!

أخبرتها أن بر الأبوين وصلة الرحم، لا يعنيان أن يُملي أحدهم علينا دينه،

وأن كل إنسان يموتُ وحده، ويُدفن وحده، ويُبعثُ وحده!

وحدثتها قصصاً كثيرة،

عن مواجهة إبراهيم عليه السّلام مع أبيه،

وكيف أنه حافظ على البرّ ولم يتخلَّ عن دينه،

وعن مواجهة سعد بن أبي وقاص مع أمه

التي أقسمت أن لا تأكل ولا تشرب حتى يرجع عن دينه،

فقال لها: يا أماه لو أن لكِ مئة نفسٍ خرجتْ نفساً تلو نفس ما تركتُ ديني!

عن بلال ونداءه الخالد: أحدٌ أحد!

وعن الماشطة وجوابها الواثق: ربي وربك اللّه!

وعن صهيب الرومي، وأنه ربح البيعُ أبا يحيى!

وحدث الذي توقعته،

كانت ابنتي هناك وحيدة، ولكنها لم تكن ضعيفة!

شيء من عزم بلال، وثقة الماشطة، وقوة سعد، وزهد صُهيب،
طلبوا منها أن تترك الإسلام فلم تقبل،
حاولوا معها بكل الوسائل فثبتت!
ولما فكروا أن يزوجوها علَّ هذا يكون حلاً لترجع عن دينها،
قالت لهم: المسلمة لا تتزوج بغير المسلم!

كانت تُحدثني باستمرار، وكنتُ أثبتها،
آمرها أن تبرَّ أهلها وتتمسك بدينها،
فكانت عند حسن ظني بها،
اليوم اتصلت بي وقالت: بابا، عندما يبدأ رمضان أخبرني كي أصوم!

جاءتنا نصرانية اسمها «بورتيكان»،
فعادت مسلمة اسمها نور!
علمتنا أكثر مما علمناها،
علمتنا أن الإيمان يصنعُ المعجزات،
وأن المرء بقلبه!

والسّلام لقلبكَ

64

السّلام عليك يا صاحبي،

صدقني حين أقول لكَ أن أشرس معركةٍ
يخوضها الإنسان، هي معركة الحفاظ على نقاء قلبه!
هذه الحياة مُتلفةٌ للقلوب!
فمهما خسرتَ إياكَ أن تخسرَ قلبكَ،
من يخسر قلبه مهزوم، ولو ربح الدنيا كلها!

يا صاحبي،
إنَّ المؤمن في هذه الدنيا كالمقاتل في الحرب،
يُغيِّرُ موقعه ولكنه لا يترك الجبهة!
بعض المعارك طاحنة لا يقدر عليها كل الجنود،
ولا بأس بالانسحاب من بعض المعارك ما دامت النية
أن نكسب الحرب نهاية المطاف!
فإن كانت لكَ عبادةٌ تسابقُ بها الريح، ثم وجدتَ في نفسكَ عنها فتوراً،
فافتح لكَ مضماراً آخر،
وإن أُوصدَ في وجهكَ بابٌ إلى الله،
فلا تجلس وتضع يدكَ على خدك!
افتحْ لكَ باباً جديداً تلجُ منه.
قيام الليل القديم الذي ما عاد ميدانك،

عوّضه بصدقات النهار يا صاحبي،
وصيام التطوع الذي فترتَ عنه،
اجبره بحفظ القرآن!

هذه النفسُ إن لم تشتغل بالحق اشتغلتْ بالباطل،
لهذا احملها على الحقِّ حملاً،
كُن كالجنديِّ الجريح الذي يتحاملُ على نفسه
كي يصل إلى موقع الجيش..
لا تستسلم لجراحك ففي هذا الاستسلام مقتلكَ!

يا صاحبي،
إنَّ العبدَ قد يُحرم العبادة بالذّنب الذي يُصيبه،
ولكن إياكَ أن تجعلَ هذا الذّنب سوطاً في يد الشيطان،
يجلدكَ به كلما هممتَ بطاعةٍ!
خسارة معركةٍ لا تعني خسارة الحرب،
وسقوط ريشةٍ لا يعني سقوط الطائر،
وانكسار غصنٍ من الشجرة لا يعني أن الريح قد انتصرتْ،
يمكن للمرء أن يتحامل على نفسه، فلا تترك موقعكَ!

والسّلام لقلبكَ

65

السّلام عليكَ يا صاحبي،

نحن في الحُبِّ نلتمسُ الأعذار أو لعلنا نختلقها
لأننا نريدُ أن نبقى!
نبادرُ دوماً بالاتصال ونقول: لعله أراد أن يتصل ولكنه انشغل!
نسأل أولاً ونقول: كان يريدُ أن يسأل ولكن أمراً قد حدثَ له!
نرسلُ إليه: هل أنتَ بخير؟!
نوهم أنفسنا أنه ما سأل إلا لأنه ليس بخير!
لا شيء أشد مرارة من أن يكون المرءُ هو البادئُ دوماً!

يا صاحبي،
لا تتسول الحُب!
في الحُب الاهتمام بالاهتمام، والسؤال بالسؤال، والمبادرة بالمبادرة!
إياكَ أن تعتقد أني أقولُ لكَ اجعلها واحدة بواحدة،
ليس بين الأحبة هذا الحساب،
ولكن أقول لكَ قبل أن تبذل كل شيءٍ تأكد أنكَ الحبيبُ أولاً!

إن بذل المشاعر لمن لا يستحقها إهانة للنفس،
وأنا أريدكَ أن تكون حبيباً لا مُهاناً!

بذل المشاعر لمن لا يستحقها كزراعة وردة في مزبلة!

عليكَ أن تعرف أين تزرع ورودكَ،

فإن وجدتَ لها تربةً خصبةً فاسقها بماء عينيك،

ولا عليكَ ولو كنتَ البادئ ألف مرةٍ،

ولكن صدقني من يُحبكَ،

لن يتركَكَ على الدوام تبدأ أولاً!

والسّلام لقلبكَ

66

السّلام عليك يا صاحبي،

تقولُ لي: إنني أدعو اللّه، ولكني أتساءل بيني وبين نفسي،
فأقول: كيف سيُغيّر اللّهُ كل هذا؟!
فأقولُ لك: ليس لكَ من الأمر إلا الدعاء!
أما الكيف هذه فليست من شأنك أبداً،
ولا تدخل ضمن صلاحياتك مطلقاً،
الكيف هذه من الأسباب، والأسباب كلها بيد اللّه!

ثم إني أُعيذكَ أن تستكبر أمراً على اللّه!
نعم يحدثُ أن يستصعب الإنسان ظرفه،
ويحدث أن يهمسَ لنفسه قائلاً: الأمر يحتاج إلى معجزة!
يا صاحبي لهذا بالضبط كان الدعاء:
لصناعة المعجزات!

ولكن عليكَ أولاً أن تبرأ من حولك وقوتك إلى حول اللّه وقوته،
وتدعوه دعاء الغريق الذي لا يرى حتى قشة يتمسكُ بها،
فيلجأ إلى اللّه موقناً أنه سيستجيب!
وإياك أن تتعامل مع اللّه كالمُجرِّبِ له،
آمِنْ أولاً ثم انتظر النتائج!

يا صاحبي،

ما دمتَ ترى أن الأمر في الأسباب فسيركنك اللّهُ إليها،

ويخلي بينك وبينها،

أما حين ترى الأمر بيده سبحانه، بيده وحده،

فسيهيء لكَ من الأسباب ما لا يخطر لكَ على بالٍ!

يا صاحبي،

يد اللّه تعملُ في الخفاء،

لهذا ليس شرطاً أن ترى خطوات الفرج!

عندما أُلقي يوسف عليه السّلام في السجن ظلماً وجوراً،

كان اللّه سبحانه قادراً على أن يرسل صاعقة تخلعُ جدران السجن ويُخرجه،

ولكنه لو فعلَ فسيخرجُ يوسف عليه السّلام والتهمة الزور ما زالت ملتصقة به،

واللّهُ سبحانه أراد له الحرية والبراءة معاً!

أرسل في الليل رؤيا في منام الفرعون،

بهذه البساطة أحوجه إلى يوسف عليه السّلام،

فطلبه بين يديه،

ورفض النقيُّ يوسف أن يخرج حتى ثبتت براءته،

وهكذا صار حراً ومكيناً وأميناً،

حين تسألني عن الأسباب تذكَّرْ هذا جيداً!

مـن كان يعتقـد أن حُلمـاً سـرى فـي ليـلٍ سـيُغير كل أحـداث المشـهد؟!

يا صاحبي،
أُتركْ كلَّ شيءٍ في يد اللّه
ثم تأمّل المعجزات

والسّـلام لقلبكَ

67

السّلام عليك يا صاحبي،

تقولُ لي: ما أكثر المتطفلين، فماذا أفعل؟
فأقول لكَ: ترفَّعْ!
لستَ مجبراً على أن تخوض كل نزالٍ تُدعى إليه،
ولا أن تشتركَ في كل معركةٍ تنشبُ أمامكَ،
ثمة معارك، الهزيمة فيها مُرَّةٌ جداً،
والنصر فيها تافه!

يا صاحبي،
قرأتُ مرَّةً أن الغراب هو الوحيد من بين كل الطيور
الذي يتجرأ على النَّسر!
إنه يجلسُ على ظهره، ويعضه من رقبته،
ولكن النسر لا ينزل إلى مستوى الغراب أبداً
ولا يقاتله!
كل ما يفعله أنه يُحلِّقُ به عالياً، عالياً جداً،
إلى مسافة تضيقُ فيها رئتي الغراب،
عندها فقط ينزل الغراب خائباً!
فتعلَّمْ هذا الدَّرس جيداً،
ولا تدعهم يُنزلونك إلى مستواهم،

حلِّق عالياً إلى درجة تجعلهم يختنقون من ثقتك بنفسك!

هذه هي الطريقة الوحيدة لكسب المعركة،

أن ترتقي!

والسّلام لقلبكَ

68

السّلام عليكَ يا صاحبي،

لا أُخفيكَ أني أنزعجُ كثيراً حين تعثرُ قنوات التلفزة على أحد المعمرين الذين تجاوزوا مئة سنة بأعجوبةٍ،
فيتحدثون عنه كأنه شخص فعل إحدى المعجزات!
وأول سؤالٍ يسألونه دوماً: كم عمركَ؟
يريدون منه أن ينطق الرقم على مسامع المشاهدين،
يعتقدون أن المعجزة تكمن في الرقم!
لا أحد يسأله ماذا فعلتَ في هذا العمر الطويل كله،
ما هي إنجازاتك الحقيقية؟
لا أحد يسأله كم كتاباً قرأتَ؟
ولا كم خاطرًا جبرتَ؟
ولا كم دمعةً مسحتَ؟
ولا كم ضحكةً من قلبكَ ضحكتَ؟

يا صاحبي،
إن السنوات مجرَّد أرقام،
وعمر الإنسان الحقيقي ليس في الأيام التي يعدَّها،
بل في الأيام التي يعيشها فعلاً!
يُحكى أن رجلاً من العرب يُدعى جبراً،

كان كثير الترحال، يودع مدينة، ويستقبلُ قريةً..

وفي إحدى رحلاته دخلَ قريةً

ومرَّ بمقبرتها فرأى أمراً عجباً،

رآهم قد كتبوا على شواهد القبور اسم الميت، وعمره!

وما زاد دهشته أن الأعمار كانت قصيرةً جداً

مقارنةً بحجم القبور التي تبدو لأشخاص راشدين،

لا لأطفال خطفتهم يد المنون، قبل أن يبلغوا سنَّ الرُّشد!

قرأ على شاهد القبر الأول: يرقدُ في هذا القبر سعد، عاشَ سنةً وثلاثة أيام!

وقرأ على شاهد القبر الثاني: ترقدُ في هذا القبر فاطمة، عاشتْ سنتين وأسبوعاً!

وكلما انتقل من قبرٍ إلى قبرٍ، زادت دهشته،

حتى وصل أخيراً إلى حارس المقبرة وقال له:

لقد عشتُ رجباً، ورأيتُ عجباً، ولكني ما رأيتُ قط أعجب من قريتكم!

ابتسم حارس المقبرة وقال له: لعلّكَ تقصِدُ الأعمار القصيرة المدونة على شواهد القبور،

فقال له جبر: أجل!

فقال حارس المقبرة: نحن لا نحسبُ في أعمارنا إلا الأيام السعيدة التي عشناها!

فسعدٌ مثلاً عاش خمسين عاماً، منها سنة وثلاثة أيام سعيداً،

أما ما تبقى فأمضاه في الشقاء!

فكتبنا ما عاش في السعادة، وأسقطنا من عمره ما عاشه في الشقاء!

فقال له جبر: إن أدركني الموتُ في قريتكم، فاكتبوا على شاهد قبري:

يرقدُ في هذا القبر جبر، من بطن أمه إلى القبر!

يا صاحبي،

ليس المهمُّ كم يعيش المرء،

المهم كيف يعيش!

وإني أعيذكَ أن يكون عمركَ مجرَّد أيامٍ تعدها،

وسنواتٍ تُفاخر أنك أمضيتها،

وهي في الحقيقة مجرد أرقام فارغة من المضمون!

يا صاحبي،

العمرُ لا يُقاس بعدد الأيام،

وإنما بعدد التجارب!

والسّلام لقلبكَ

69

السّلام عليك يا صاحبي،

لعلّكَ الآن تقولُ في نفسك: كيف سيرجع اللّه لي حقي؟!
أو لعلكَ كنتَ أكثر غضباً فقُلتَ: كيف سينتقم اللّه لي؟!
إنكَ تنظرُ الآن في الأسباب فيبدو كلَّ شيءٍ أمامك شائكاً وصعباً!

يا صاحبي،
لا تُفكِّرْ في صعوبة ظرفك،
فكِّرْ في قوَّة الرّبِ الذي تدعوه!
منذ متى نسأل اللّه عن الكيف يا صاحبي؟!
الكيف هذه للّهِ وحده،
نحن ندعوه بيقينٍ فقط!
أما ترتيبات المعركة،
وسلاح الانتقام فهي من شأن الرَّب
القادر الذي سيدبرها بحكمته!
اللّه سبحانه دوماً يدهشنا بالسلاح الذي يختاره للمعركة!

عندما رفع نوح عليه السّلام يديه إلى السماء قائلاً:
«أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ»
لم يكن يخطر في باله أبداً أن انتقام اللّه سيكون مدوياً،
وصاعقاً إلى هذه الدرجة!

لعلَّ أكثر ما كان ينتظره أن يهلكهم اللّه بضربة واحدة أو صيحة!
لا أحد من سكان الأرض ولا السماء،
كان يتوقع أن يكون الماء هو سلاح المعركة!
الذي سيختاره اللّه سبحانه لنصر عبده المظلوم،
وصدر الأمر الإلهي للسماء أن تنهمر،
وللأرض أن تُخرج ماءها، والبحار أن تطغى،
غرقت الأرض حتى آخرها إلى أن صار لا عاصم من أمر اللّه إلا اللّه!

قصص القرآن ليست للتسلية يا صاحبي،
إنها عقيدة، ودروس في الإيمان،
وليس للمظلوم إلا أن يرفع شكواه!
أما تفاصيل المعركة وسلاحها،
فهذا كله من شأن الذي يُدبر كل شيء بحكمته!

يا صاحبي،
إنكَ لو عشتَ زمن النمرود،
ورأيته يأمر الناس بالسجود له،
ورأيته يُناظر إبراهيم عليه السّلام بكل بجاحة،
ويقول: « أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ»!
لربما سألتَ نفسكَ باستغراب: كيف سيُغيِّر اللّه كل هذا؟
أي سلاحٍ فتّاكٍ سيختاره اللّه ليذلَّ هذا الطاغية،
وبالطبعٍ ما كانَ سيخطرُ على بالكَ أبداً أنَّ اللّه سبحانه،
سيرسل جندياً واحداً من جنوده لينتقم به،

جندي صغير لا يكاد يُرى بالعين المجردة!
بعوضة! أجل بعوضة واحدة أدخلها في أنفه لتستقرَّ في دماغه!
فلا يهدأ إلا حين يضربه الذين كانوا يسجدون له بالأحذية على رأسه،
بهذه الطريقة المدهشة يُدبر الله الأمور يا صاحبي!

يا صاحبي،
إنك لو شهدتَ اللحظة التي وُضع فيها إبراهيم عليه السّلام،
في كفة المنجنيق ليُلقى في النار!
لقلتَ في نفسكَ: ربما سيُطفئ الله النار بماءٍ يُنزله من السماء دفعةً واحدة!
كان هذا حلاً وحيداً لو أن النار تحرقُ بأمر نفسها!
ولكن هذه النار لا تحرقُ إلا بأمر ربها،
فصدر إليها الأمر أن تكون برداً وسلاماً فكانتْ!

إن الله سبحانه يُغيِّرُ خواص الأشياء إن أراد ذلك،
السكين الحاد لم تذبح إسماعيل عليه السّلام يا صاحبي!
والحوت المفترس لم يأكل يونس عليه السّلام وإن ابتلعه،
كل شيءٍ في هذا الكون يعملُ بأمر الله،
فلا تنظُرْ في الأسباب،
كُنْ مع ربِّ الأسباب يكفيك مؤونتها!

والسّلام لقلبكَ

70

السّلام عليك يا صاحبي،

لا شيءَ أحبَّ للّهِ من انكسار عبده بين يديه!
فانكسِرْ للّه يأتيكَ الجبر!
نادِه بانكسار إخوة يوسف:
﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ﴾
إذا أردتَ أن تُعَزَّ فعليكَ أن تذِلَّ للّهِ أولاً!

تأمّلها جيداً: يا أيها العزيز!
إنه اللّه الذي أمره بين الكاف والنون، فإذا قال للأشياء كوني كانت!
جميل أن تتذكر، أنه رحيم ولكن تذكَّرْ أولاً أنه قادر!
تذكر كيف أمر الأرض أن تتفجر عيوناً نُصرةً لنوحٍ عليه السّلام، فتفجَّرتْ!
وكيف أمر العصا أن تصير حيةً فصارتْ!
وكيف أمرَ الجبل أن يصيرَ ظُلَّةً فظلل!
وكيف أمر البحر أن ينشق ويصير طريقاً يبساً فكان!
وكيف أمر النار أن لا تحرق فمات لهيبها!
وكيف أمر السكين أن لا تذبح فذهبتْ حدتها!
وكيف أمر الحوت أن لا يهضم فتعطلتْ شراسته!

هـذا هـو العزيـز الـذي أريـدك أن تدعـوه، القـادر كثيـراً ودائمـاً وأبـداً!

تأملها جيداً: مسَّنا وأهلنا الضُرُّ!

يا صاحبي،

حين تشكو إلى الناس،

فلن تنال إلا مشاعر التعاطف في أحسن الأحوال،

ونظرات الشفقة في أسوأها!

ولكنك حين تشكو إلى الله،

حين تأتيه مكسور الجناحين ترجع مُحلِّقاً،

وحين تأتيه مكسور الخاطر ترجع مجبوراً،

وحين تأتيه مكسور القلب ترجع مرمماً،

فبُثَّ شكواك إلى ربكَ،

واستعملْ معه أخلاق الأطفال،

فإن الطفل إذا أراد شيئاً بكى حتى يأخذه!

ابكِ بين يديّ ربكَ يا صاحبي،

تسوَّل على بابه تسوَّل الفقير الذي لا يجد لقمة،

وتمرَّغ بين يديه تمرُّغ الموجوع على باب المستشفيات،

إن الله يُحبُّ أن يُسأل!

وفي الأثر أنَّ الله أوحى إلى موسى عليه السّلام،

أن يا موسى سلني ملح عجينتك، وعلف دابتك، وشِراك نعلكَ!

من افتقرَ إلى اللّٰه أغناه،

ومن استغنى عن اللّٰه كان اللّٰه عنه أغنى!

تأملها جيداً : وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ،

يا صاحبي،

إياك أن تنظُر بعين العُجب إلى طاعتك،

وإنما اُنظُر إليها نظرة العبد المُقصِّر،

وتعلَّم من الملائكة أدب العبادة!

ما من موضع شبرٍ في السماء، إلا فيه مَلكٌ راكعٌ أو ساجد!

يُبعثون يوم القيامة يقولون: سبحانكَ ما عبدناكَ حقَّ عبادتك!

يا صاحبي،

حين تشعرُ بالتقصير في العبادة،

فاعلم أنها مقبولة!

وحين تنظُر إليها بعين الكمال كالمتمنن على اللّٰه ،

فاعلم أنها مردودة عليكَ!

عبادتنا بضاعة مزجاة رثة، وإنما يقبلها اللّٰه منا تكرماً وتفضلاً علينا !

واعلَمْ أنه ما استقام عبدٌ للّٰهِ بقوته، وإنما هو اصطفاء من اللّٰه!

وما انصرفَ أحدٌ عن باب اللّٰهِ بخاطره، ولكن اللّٰه استغنى عنه!

فاحمد اللّٰه على الاصطفاء، فإنكَ تحتاجه ولا يحتاجك!
تأملها جيداً: فأوفِ لنا الكيل
يا صاحبي سل اللّٰه القبول،
فرُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا النَّصب والتعب،
ورُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش،
واعلم أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله،
وإنما بعد أن تتغمده رحمة اللّٰهِ،
حتى النبي ﷺ لن يدخلها بعمله إنما برحمة اللّٰه،
فكيف بالذين هم دونه، وكلنا دونه!

في شُعب الإيمان للبِيهقي، والمستدرك للحاكم يروى
أن رجلاً عبد اللّٰه خمسمئة سنةٍ في رأس جبلٍ وليس له معصية،
فلما كان يوم القيامة، قال اللّٰه لملائكته: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي!
قال: إنما أدخلها بعملي يا رب
فقال اللّٰه: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي!
فقال: إنما أدخلها بعملي يارب
فقال اللّٰه: قايسوا نعمتي عليه بعمله!
فوجدوا أن نعمة البصر وحدها قد فاقت كل عمله وبقي باقي جسده!
فقال: أدخلوا عبدي النار!
فجعلَ الرجل يقول: برحمتكَ يا رب، برحمتكَ يا رب!

فقال الله: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي!

تأملها جيداً: وتصدَّقْ علينا!

هكذا يا صاحبي،

سؤال الفقير الذي يعرفُ أنه ليس له عند الغني الذي يسأله ضربة لازم!

وإنما يستعطفه ويُرقق قلبه عليه!

وليكُنْ هذا سؤالك لربك،

سؤال الذي يطلبُ المِنّة، ويعرف أنه ليس له على ربه ضربة لازم!

وإنما يسأل من إذا حرَمه لم يظلمه،

وإذا أعطاه فقد تكرّم وتحننَ عليه!

والسّلام لقلبكَ

71

السّلام عليكَ يا صاحبي،

قال ميمون بن مهران لصديقه:
إني أتصدَّقُ فأجدُ مالي يزداد،
فتصدَّقَ صاحبه، ثم قال:
تصدَّقتُ فوجدتُ مالي ينقصُ!
فقال له ميمون: أنا أعامل الله بيقين وأنتَ تُجرِّبه!

يا صاحبي،
أول خطوات إجابة الدعاء،
أن يستقرَّ في قلبكَ أنه سيستجيب!
وأول خطوات الشفاء،
أن يستقرَّ في قلبكَ أنه سيشفيكَ!
وأول خطوات المغفرة،
أن يستقرَّ في قلبكَ أنه سيغفرُ لكَ!
لا شيء أسرعُ للإجابة من أن ينظرَ اللهُ في قلب عبده،
فيرى أنه قد عقدَ كل الأمل على ربه!
أما دُعاء المُجرِّب فهذه عبادة التجار:
أضعُ مالاً في صفقةٍ وأراقب السوق،
فإن ربحتُ فقد أحسنتُ الاستثمار،
وإن خسرتُ فالأسباب لم تكُنْ مؤاتية!

يا صاحبي إنَّ اللّه لا يُعبدُ على حَرْفٍ:
إن أعطى قلنا هو قادر،
وإن منعَ تزعزع الإيمان واهتزَّ اليقين!
تعلمْ اليقين من الأوائل!

اُنظُـرْ إلـى أم موسـى كيـف ألقتـه فـي اليـم وكلهـا ثقـة أن اللّه سـبحانه سـيعيده إليهـا،
لقد صدَّقتْ اللّه وكذَّبتْ كلَّ شيءٍ!
لـم تقُلْ: كيـف لرضيـعٍ أن ينجـو فـي صنـدوق تتقاذفـه الميـاه مـن كل جانـب؟!
ولـم تقُلْ: كيـف أرسـله إلـى فرعـون بيـديَّ وهـو الـذي كان يبحـثُ عنـه ليذبحـه؟!
كان يكفيها أن تسمع وعد ربها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾
حتى تلقيه في النهر دون أن ترتجفَ يدها!

اُنظُرْ إلـى هاجـر وقـد جـاء بهـا إبراهيـم عليـه السّـلام وبرضيعهـا إلـى صحـراء مقفـرة،
لا ماء فيها ولا شجر ولا أنيس ولا جليس،
أعطاها قربة ماءٍ وجُراباً فيه تمر،
ودار ظهره ومضى!
فما زادت إلا أن قالتْ له: آللّه أمركَ بهذا؟
فقال: نعم
فقالت له: اِذهبْ فلن يُضيعنا اللّه!

وعندما نفد منها الماء وجعلت تهرول بين الصفا والمروة،
كانت كل غايتها أن تحصل على شربة ماء!
ففجَّر اللهُ زمزم بين رجلي ابنها،
يقين هاجر ردّه الله إليها بماء زمزم،
يا صاحبي إنَّ الله لا يُضيِّعُ أهله!
والسّلام لقلبكَ!

72

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقول الأسطورة: أن راعياً كان يرعى خِرافه في الغابة،
وكان من عادته أن يضربَ في مزماره ألحاناً عذبة،
فحدث مرَّةً أن استعذبتْ حيَّةٌ ألحان مزماره،
فدخلتْ إلى جحرها وأخرجتْ ليرةً ذهبيةً وألقتها أمام الراعي!
أخذ الراعي الليرة الذهبية وعاد إلى بيته مسروراً،
وفي صبيحة اليوم التالي قصد المكان ذاته، وبدأ يضربُ في مزماره ألحانه العذبة،
فخرجت الحية ترقص وتتمايل طرباً،
ثم دخلتْ جحرها وأخرجتْ ليرةً ذهبيةً وألقتها بين يديه!
استمرَّ الحال على هذا المنوال، وبدأت أحوال الراعي تتحسن،
فقرر أن يذهبَ لأداء فريضة الحج،
وأوصى ابنه بالقطيع،
وأوصاه أيضاً أن يرعى حيث يشاء إلا في تلك البقعة دون أن يخبره عن السبب!

ساقَ الابن القطيع إلى المرعى ثم قال في نفسه:
ما نهاني أبي عن الرَّعي في تلك الناحية إلا لأمر ما،
ودفعه الفضول وحماس الشباب إلى اكتشاف المجهول،
ذهبَ بالقطيع إلى الناحية التي نهاه عنها أبوه،

وبدأ ينفخ في مزماره فخرجتْ الحية على عادتها ترقص وتتمايل،

ثم دخلتْ إلى جحرها وأخرجتْ ليرةً ذهبيةً وألقتها بين يديه!

أخذ الابن الليرة الذهبية وعاد إلى البيت وهو يقول في نفسه:

لا شكَّ أنَّ هذه الحيّة تُخفي كنزاً كبيراً، سأقتلها وآخذُ الكنز وحدي!

صبيحة اليوم التالي أخذ سيفه ومزماره عاقداً العزم على قتل الحية وأخذ الكنز!

بدأ يعزفُ ألحانه فخرجتْ الحية طَربةً كعادتها كل مرةٍ،

فاستلَّ سيفه وعاجلها بضربةٍ قطع لها ذيلها فلدغته فإذا هو جثة هامدة!

عاد الأب بعد أن أدى فريضة الحج فأخبروه كيف وجدوا ابنه صريعَ لدغةِ أفعى،

فعرفَ أنَّ هذا من صنيع الحية التي يعرفها،

فأضمرَ الشرَّ في نفسه، وعزمَ على الثأر!

ذهبَ إلى حيث اعتاد أن يرعى في الأيام الخوالي،

وبدأ يضربُ في مزماره ألحانه القديمة،

فخرجتْ الحية كما كانت تفعل،

ثم عادت بسرعةٍ ودخلتْ جحرها ، وأخرجتْ ليرةً ذهبيةً، وألقتها للراعي

وقالت له: خذها وامضِ، فأنتَ لن تنسى ابنكَ، وأنا لن أنسى ذيلي!

لا أحد ينسى جراحه يا صاحبي،

مهما مرَّت الأيام على الجرح،

وغطَّتها رمال الزمن إلا أنها تبقى تنِزُّ على الدوام!

الجارح سيبقى متخوّفاً من الانتقام،

والمجروح سيبقى متحيّناً فرصة للثأر!

أسوأ ما في الجراح ليس الألم المصاحب لها، وإن كان هذا موجعاً لا شك،

وإنما الأسوأ هو انكسار الثقة!

فلا المطعون سيثق مجدداً،

ولا الطاعن سيصدق أن الصفحة قد طُويت!

يا صاحبي،

بعض الجروح لا ينفع معها إلا أن تلملم خيبتك وتمضي!

والسّلام لقلبكَ

73

السّلام عليك يا صاحبي،

منذ فترةٍ شاهدتُ فيلماً راق لي كثيراً،
فيه رسالة عميقة جداً، والتِفاتَة تُحسب لكاتبه،
اسم الفيلم «shutter» ويحكي قصة شخصٍ يشعرُ بآلامٍ شديدة أسفل ظهره،
أجرى فحوصاتٍ كثيرة،
وعرض نفسه على أطباء،
ولكن دون جدوى،
فلم يستطع أحدٌ أن يُشخِّص له سبب هذه الأوجاع!
وفي أحد الأيام التقط صورةً لنفسه،
وكم كانت دهشته عظيمة عندما شاهد في الصورة امرأةً تجلسُ على كتفيه!
حاول أن يتذكر: من يا تُرى تكون هذه المرأة؟
فاكتشف أنها تلك المرأة التي صدمها ذات ليلةٍ بسيارته فماتت،
فولّى مدبراً دون أن يحملها إلى المستشفى أو يُبلغ الشرطة!
الفيلم قائم على فكرة خرافية وهي أن أرواح المظلومين تبقى تُلاحق ظالميها،
صحيح أننا نؤمن أن الأرواح بعد الموت إما في نعيم وإما في عذاب،

ولكن ما أعجبني في الفيلم هي فكرة أن الأشياء السيئة التي يفعلها المرءُ ستبقى تلاحقه!

وهذه فكرة ليست بعيدة عن الدين إطلاقاً!
نحن نؤمن أن الظالم سينال عقابه نهاية المطاف،
وأن المحسن سينال جزاء إحسانه،
وإن لم يكن في الدنيا، فهناك آخرة!
غير أنه من عدل الله في الدنيا،
أنَّ بعض الأفعال يُعجِّل الله عقابها أو جزاءها في الدنيا!
خُذ عندك البرَّ والعقوق مثلاً،
هذه قلما تتأجل إلى يوم القيامة..
فالولد العاق يُبتلى بالأولاد العاقين غالباً،
والابن البار يُكافأ بالأولاد البارين،
أيضاً قلما تنفضُّ الدنيا ولم ينتقم اللهُ من ظالم،
وإن أخَّره إلى يوم القيامة فلحكمةٍ منه سبحانه!

يا صاحبي،
هذه الدنيا دولاب لا يكُفَّ عن الدوران،
وكل ساقٍ سيُسقى بما سقى،
فأحسِنْ سُقيا غيركَ،
لأنك ستشربُ من نفس الكأس الذي سقيته إياه!

والسّلام لقلبكَ

74

السّلام عليك يا صاحبي،

كنتُ أقرأ البارحة في سيرة حياة صديقي الدكتور مصطفى محمود،
وسبق أن أخبرتك أنه ليس بالضرورة أن تلتقي بإنسان ليكون صديقك،
ثمة أشخاص تعرفُ أنك لو التقيتهم لكنتم أصدقاء!

كان مصطفى محمود يُحبُّ التشريح كثيراً ،
لدرجة أنه في سنته الجامعية الأولى في كلية الطب،
اشترى نصف جثة ووضعها بالفورمالين تحت سريره،
ولم يكن يعرف أن الفورمالين الذي يُحفظُ به الجثث من التعفن،
له رائحة نفَّاذة يؤدي تنشقه فترةً طويلة إلى تلفٍ في الرئتين!
وبعد مضي ثلاث سنوات تضررت رئتاه كثيراً،
وتم عزله في غرفة صغيرةٍ لثلاث سنواتٍ أيضاً،
لم يكن يستطيع فيها أن يذهب إلى الجامعة حتى تخرج زملاؤه،
وبقي هو حبيس غرفته!
اعتقد مصطفى محمود أنه منحوس إذ فاته التخرج،
وكان ممنوعاً من عمل شيءٍ سوى القراءة،

فقرأ في هذه الفترة ما يزيد على أربعة آلاف كتاب!
وبعد انقضاء هذه المِحنة، وزوال هذه الغُمَّة،
اكتشفَ أن هذه السنوات كانت أجمل ما حدثَ له،
كانت هي التي صنعته بأمر ربه!

يا صاحِبي،
إن اللّه يسوق لنا لطفه أحياناً على طبقٍ من الابتلاء!
لولا هذه العزلة لربما تخرج مصطفى محمود طبيباً عادياً،
ومات دون أن يدري به أحد،
ولكنَّ اللّه أراد أن يصنعَ صاحب برنامج العلم والإيمان على عينه!

يا صاحبي،
لولا السجن ما صار يوسف عليه السّلام عزيز مصر!
ولولا امتحان الذّبح ما صار إبراهيم عليه السّلام خليل اللّه!
ولولا امتحان الانجاب دون زوج ما كانت الصِّدّيقة مريم تُقرأ قصتها في المصحف!
فسبحان من يبتليكَ ليُرقيكَ!

يا صاحبي،
ثِقْ بتدبير اللّه!
قتلُ الغلام كان قمة اللطف لأن اللّه سبحانه يبتلي بالصغيرة ليُنجي من الكبيرة،

ربما وأنتَ تقرأ في سيرة النبيِّ ﷺ اعتصرَ قلبُكَ ألماً عليه،
وهو على مشارف مكة يودعها والدموع في عينيه ليلة الهجرة،
ولكن لولا الهجرة ما كان ليكون للإسلام دولة،
ولولا دموع الفراق ما كانت عِزّة الفتح!

والسّلام لقلبكَ

75

السّلام عليك يا صاحبي،

دخلَ التابعي الجليل عبد الله بن محيريز دكاناً يريدُ أن يشتري ثوباً،

فقال رجل قد عرفه لصاحب الدكان:

هذا ابن محيريز فقيهنا وعابدنا، فأحسِنْ بيعه!

فغضِبَ ابن محيريز، وألقى الثوب من يده وقال:

إنما نشتري بأموالنا ولا نشتري بديننا!

ويقول ابن كثير: كان أبو عبد الله الأصبهاني

لا يشتري خبزه من خبَّازٍ واحد، ولا بَقله من بقَّالٍ واحدٍ،

وكان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه!

وكان يقول: أخشى أن يُحابوني فأكون ممن يعيشُ بدينه!

يا صاحبي،

إن أسوأ لقمةٍ يأكلها الإنسان هي تلكَ التي يبيعُ فيها دينه!

وما أكثر الآكلين بدينهم!

كم من بيتٍ فخم كان ثمنه عقيدة كاملة،

وكم من سيارةٍ فارهة كان ثمنها فتوى تمَّ لَيُّ عُنقِ النصوص لأجلها،

ورحم الله الشافعي إذ كان يقول:

أن أترزَّقَ بالرقص خيرٌ لي من أن أترزَّق بالدين!

يا صاحبي،
لا تنظُر إلى دموع واعظ،
قبل أن تنظر إلى موقعه من الحق والباطل!
ولا تخدعنكَ فصاحة خطيب عن الزهد،
قبل أن ترى حاله!
صحيح أنه علينا أن نأخذ بالقول الصادق وإن أتى من كاذبٍ،
ولكن هذا لا يعني أن يكون المرءُ خِباً يسهلُ خداعه!

والسّلام لقلبكَ

76

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تروي العجائز وروايات العجائز،
وإن لم تصحَّ سنداً ومتناً، فإنها في الغالب تصحُّ معنىً!
أن طائراً في عهد سليمان عليه السّلام قصدَ غدير ماءٍ ليشربَ،
فرأى هناكَ صِبيةً صغاراً يلعبون،
فقال في نفسه: واللّهِ لا آمنُ على نفسي من عبثِ الغلمان،
وإني منتظرٌ هنا حتى ينفضَّ جمعُهم ويتفرَّق شملُهم،
فإذا كان هذا أتيتُ الغدير وشربتُ حتى أرتوي!
وسرعان ما غادر الأولاد الغدير،
وما كان آخرهم ينصرف حتى نزل بالغدير شيخٌ،
له لحية طويلة تبدو عليه علامات الوقار.
فقال الطائر في نفسه: لا خطرَ عليَّ من هذا الشيخ الجليل،
فإنَ له لحيةً لا تكون إلا للكهان والزُّهاد والعُبَّاد،
فوردَ الماءَ ليشربَ،
فرماه الشيخُ بحجرٍ فقأ له فيه عينه!
وجاء الطائر إلى سليمان عليه السّلام شاكياً،
أمر سليمان أن يُحضرَ الشيخ بين يديه،
ولما استمع من الخصمين،
أمرَ أن تُفقأ عين الشيخِ جزاءً لما فعل،

ولكن الطائر قال له: يا نبيَّ اللّهِ دَعْ عينه فلا ذنبَ لها،
ولكن اِحلقْ له لحيته،
فواللّهِ ما جعلني آمنُ مكره وأنزلُ في حِماه إلا هي!

يا صاحبي،
الدين قبل أن يكون مظهراً فهو جوهر،
كلاهما مهم لا شك!
ولكن ما أقبح مظهر الدين على قلب فاجرٍ!
وما أحلى القلب النقي وإن لم يكن عليه شيءٌ من مظهر الدين!

يا صاحبي،
قبل أن تُطلقَ لحيتكَ قصِّرْ يدكَ عن أموال الناس وحقوقهم،
وقبل أن تُنظف أسنانك بالسواك،
تذكَّرْ أنه حرام أن تشحذها لتلوك لحوم الناس بها!

يا صاحبي،
قال لقمان لابنه:
يا بُني إِحذرْ واحدة هي أهلٌ للحذرِ،
إياكَ أن تُري الناس أنك تخافُ اللّه وقلبُكَ فاجر!

والسّلام لقلبكَ

77

السّلام عليكَ يا صاحبي،

قال رجلٌ للمُبرِّدِ النحويِّ الشهير:
شتمني فلانٌ فحلمتُ، وسكتُّ عنه،
ثم شتمكَ، فساويتُكَ بنفسي، وسكتُّ عنه!
فقال له المُبرِّد: ليسا سواء!
إنَّ احتمالكَ الأذى في نفسك حِلم،
واحتمالكَ الأذى في صديقك غدر!

يا صاحبي،
من كان حاضراً في قلب صديقه ما غابَ وإنْ غابَ!
افتقدَ النبيُّ ﷺ كعب بن مالك، فسأل: ما بالُ كعب؟
فقال رجل: حبسه بُرداه، والنظر في عطفيه!
يريدُ أن يقول أنه تخاذل في الخروج.
فقام معاذ بن جبل وقال له: بئسَ ما قلتَ،
واللهِ يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً!

يا صاحبي،
صديقك قرين روحك،
وقطعة قلبكَ،
فاحفظْ له غيبته

لا تسمح لأحدٍ أن يجلده بلسانه،
ولا أن يلوك لحمه ،
فمتى فعلتَ فإنكَ لستَ بصاحبٍ!

يا صاحبي،
انتدبَ النبيُّ ﷺ الصحابة لبيعة الموت عند شجرة الرضوان،
وبسط يده يتلقى البيعة منهم واحداً تلو الآخر،
فلما فرغوا جميعاً من البيعة،
وكان عثمان بن عفان في مكة قد حبسته قريش،
رفع النبيُّ ﷺ يده اليسرى ووضعها فوق يده اليُمنى،
وقال: وهذه يد عثمان!
يا للصحبة يا صاحبي، يا للصحبة!
غابتْ يد عثمان، فسدَّتْ غيابها خير يدٍ مرَّتْ يوماً على هذا الكوكب!

يا صاحبي،
إن غبتُ عنكَ فاحفظْ غيبتي،
فما أنا بالمُصدِّقِ فيكَ قولاً سيئاً،
فلا تُصدِّقْ فيَّ قولاً سيئاً حتى تُراجعني،
ولا تقُلْ لا دُخان بلا نار،
ولا جملة القضاء الشهيرة: كل متهم بريءٍ حتى تثبتُ إدانته!
فإن اتهمني كلُّ الناس، فبرئني أنتَ!
فلا يوجعني اتهامهم بقدر ما يوجعني اعتقادكَ للحظةٍ أني احتاج دليل براءة!

يا صاحبي،

قال صديق عن صديقه،

لو قال: أنا ربكم الأعلى،

لقلتُ يتلو الآية!

ولو رأيتُ لحيته تقطرُ خمراً،

لقلتُ سُكبتْ عليه!

والسّلام لقلبكَ

78

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقولُ لي: حدثني، وواسِ قلبي!
فأقول لكَ: وأيُّ مواساةٍ لقلبكَ أعظم من أن تعرف أن الله سبحانه يعلمُ ما فيه!
فإن جهل الناس فضلكَ،
وإن قالوا فيكَ ما ليسَ فيك،
فما حاجتك إلى محام يدافعُ عنكَ،
وأنتَ بالأساس لستَ مُتَّهماً!

إن قاضي السماوات والأرض لا ينتظرُ الشهود،
فإنما ينتظرُ الشهود من غاب،
وربك مطلعٌ على المشهد كله،
ولا يحفلُ ببلاغة المحامين،
فهذه يحتاجها القضاة الذين غابت عنهم التفاصيل!
يستمعون روايتها في فم إنسان لم يشهدها،
وإنما دبّجها بحسن البيان، وحِدَّة المرافعة!
أما ربُكَّ فكان يعلمُ وقوع القضية قبل أن تقع،
فلما وقعتْ، ما زاد علمه بها شيئاً!
إنَّ علمه بما لم يقع كعلمه بما وقع!
فأصلِحْ قلبكَ، فإنه موضع نظره سبحانه،

وإنه ناظِرٌ إليك، وجازيك عمَّا فيه،
لا عمَّا يقوله الناس، ولا عمَّا تقوله أنتَ!

يا صاحبي،
إنَّ الله لا يُخدع!
فهو لا يرانا من أعلى فحسب،
وإنما يرانا من الداخل!
من الداخل يا صاحبي، فتأملها جيداً!
عندما كان ابن سلولٍ يُصلي الفجر في المسجد خلفَ النبيِّ ﷺ
كان بعض الناس قد خُدعوا بتقواه،
أما ربُكَ فكان يُصدر حكمه: إنَّ المنافقين في الدركِ الأسفل من النار!

وعندما أُتهمت الصدِّيقة بنت الصديق عائشة في عرضها،
خُدع بعض الناس بالتهمة، ونالوا من عرضها،
أما ربُكَ فأنزل البراءة قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة،
شتّانَ بين قلبٍ وقلب وإن اختلفت المواقف!

يا صاحبي،
جاء أعرابي من البادية،
واحدٌ مجهول مغمور في سواد الناس،
لا يعرفه من الصحابة أحد،

فبايع النبيُّ ﷺ على الجهاد والهجرة ،

ثـم كانـتْ غـزوة خـرجَ فيهـا هـذا الأعرابـي فـي غمـار مـن خـرج ذوداً عـن لا إلـه إلا اللّه،

ومنَّ اللّه على المسلمين بالنَّصرِ،

وقسمَ النبيُّ ﷺ الغنائم بين أصحابه،

وكان هذا الأعرابي غائباً، فتركَ النبيُّ ﷺ له نصيبه،

فلما حضرَ قيل له: تركَ لكَ النبيُّ ﷺ هذا!

فجاءه، فقال له: يا رسول اللّه ﷺ ما هذا؟

فقال له ﷺ: قسمته لكَ!

فقال: ولكن ما على هذا اتَّبعتُكَ،

ولكني اتبعتُكَ على أن أُرمى بسهم ههنا!

وأشار إلى رقبته، فأموت فأدخل الجنّة!

فقال له النبيُّ ﷺ: إن تصدُقِ اللّه يصدُقكَ!

ثم كانت غزوة أُخرى، فأُتي به إلى النبيِّ ﷺ محمولاً،

والسَّهم مغروز في رقبته حيث أشار سابقاً،

فقال النبيُّ ﷺ: أهوَ هوَ؟

فقالوا: نعم يا رسول اللّه ﷺ

فقالَ: صدقَ اللّه فصدَقه اللّه!

ثم كفَّنه في عباءته،

وصلى عليه،

ودعا له،

وكان مما سمعوا من دعائه يومها:

اللهم هذا عبدُكَ خرجَ مهاجراً في سبيلك،

فقُتلَ شهيداً، وأنا على ذلك شهيد!

يا صاحبي،
لا أعرفُ لكَ مواساةً خيراً من هذه!
رجل مجهول لا يعرفُ الصحابة اسمه،
ولم تكتب كُتب السيرة شيئاً عنه،
فبقيَ مجهولاً بعد موته تماماً كما كان مجهولاً يوم جاء مُبايعاً!
فما ضرَّه أن لا نعرفه أنا وأنتَ!
يكفي أنَّ اللّه يعرفه، وإن جهلناه!

فلا عليكَ يا صاحبي، لا عليكَ!
أخفِ الصدقة ما استطعتَ، فإن قيل بخيل
فقد وقعتْ في يدِ اللّهِ قبل أن يقولوا!
وقُمْ من الليل ما وسعتكَ همتُكَ وحملتكَ قدماكَ،
فإن قيلَ فاترٌ في العبادة،
فقد علمَ اللّه حرارة دمعكَ قبل أن يقولوا!
وصُمْ تطوعاً فإن قيل لا يعرفُ إلا رمضان،
فقد علمَ اللّه ظمأ الحنجرة قبل أن يقولوا!

يا صاحبي،
إنّ المرءَ لا يُؤتى إلا من قِبلِ قلبه،
فإنْ لم تُؤتَ من هناكَ،
فلن يضُرَّك شيء ولو وقعتْ السماء على الأرض!

والسّلام لقلبكَ

79

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقولُ لي: ادعُ اللّه لي أن يعصمني من الشيطان!
فأقول لكَ: سأفعل،
ولكني سأدعو اللّه أن يعصمكَ من نفسِكَ أيضاً!
فتنظر إليَّ بدهشةٍ،
عيناك تحملقان بي كأني جئتُ بقولي هذا شيئاً فرِياً!

هوِّن عليكَ يا صاحبي،
فنحن لا نؤتى من الشيطان الخبيث فقط!
النفسُ فرس جامحة، وقد تؤدي بصاحبها إلى المهالك!
إبليسُ نفسه لم يكن هناك شيطان قد وسوس له أن يرفضَ السجود لآدم عليه السّلام،
نفسه هي التي قادته إلى مصرعه!
هذا الكِبر، والغرور، والعنجهيَّة،
الشعور بالاستعلاء الفارغ، وتصنيف الذات في القمة،
هي التي حولته في طرفة عينٍ من عابدٍ مجتهدٍ، إلى شيطانٍ رجيم!
وتستغربُ أنتَ مني حين أدعو اللّه لكَ أن يقيكَ شرَّ نفسِكَ؟!

يا صاحبي،

هناك أشخاص لا توسوسُ لها الشياطين،

لأن لها نفوساً غارقة في الضلالة،

تجتهدُ وتُبدعُ فيها بما لا يخطرُ للشياطين على بالٍ!

الشياطين لا توسوس لدوابّ تمتطيها،

وإنما توسوس للذين يجاهدون أنفسهم ليل نهار!

الذين يتعثرون وينهضون، يذنبون ويستغفرون!

للذين هم ميدان الشيطان وحربه المستعرة،

وإني حين أسأل اللّه أن يقيكَ شرَّ نفسِكَ فإني أدعو لك

أن تمتلِكَ نفسكَ لا أن تمتلككَ هي!

والسّلام لقلبكَ

80

السّلام عليكَ يا صاحبي،

يقولُ ابن الجوزي: لقد تابَ على يديَّ في مجالس الذِّكر أكثر من مئتي ألف،
وأسلم على يديَّ أكثر من مئتي نفس،
ولكم سالتْ عينُ متجبر بوعظي لم تكُنْ تسيل،
ولقد جلستُ يوماً فرأيتُ حولي أكثر من عشرة آلاف،
ما فيهم إلا من رقَّ قلبهُ، أو دمعتْ عينه،
فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إذا نجوا وهلكتِ؟!
فصحتُ بلساني وجدي: إلهي وسيدي، لئن قضيتَ عليَّ بالعذاب غداً،
فلا تعلمهم بعذابي، صيانةً لكرمكَ لا لأجلي،
لئلا يقولوا: عذَّبَ من دلَّ عليه!

يا صاحبي،
لن يصلَ إلى اللهِ معجبٌ بنفسهِ،
ألا وإن الصالحين كلما اقتربوا من ربهم،
كلما شعروا بتقصيرٍ لم يشعروا به من قبل،
ذاكَ أن الإنسان كلما ذاقَ حلاوة القرب،
غصَّ بشيءٍ من مرارة البُعد التي لم يجتزها بعد،
الأمر أشبه بحال العالم والجاهل:

الجاهل يحسبُ أنه يعرفُ كلَّ شيء،
أما العالم فيعلمُ أنه يجهلُ الكثير،
لا شيء يكشف مساحة جهل الإنسان مثل أن يتعلم!
أما الجاهل فإنه يجهلُ ما لا يعلمُ لهذا يحسبُ نفسه علاَّمة زمانه،

وهكذا هو الأمر مع الإيمان!
الذي يتصدَّقُ يستشعر تقصيره،
لأنه رأى أنه لم يَسُدَّ إلا ثغرةً واحدة!
أما الذي يعيشُ لنفسه فمستريح،
الجهل أحياناً نعمة مريرة!
تماماً كنعمة البهائم لا حساب ولا عذاب،
ولا همٌّ دنيا ولا همٌّ آخرة!
والذي يصومُ تطوعاً تجده يشعرُ بالتقصير،
إن فاته يوم اعتاد أن يصومه ولم يصمه!
أما الذي لا تشغله هذه الأمور فلا يشعر بمرارة فقدها،
لأنه بالأساس لم يذق حلاوة وجدها!
صدقني لو جاؤوا بقائم ليل وربطوه في سريره،
لبكى لأنه سيشتاق وقوفه بين يدي ربه،
أما الذي لم يجرب هذه اللذة،
ولم يغمس روحه بها،
فسريره جنته!

والسّلام لقلبكَ

81

السّلام عليكَ يا صاحبي،

إنَّ الأشياء التي تعثرُ عليها مُصادفةً
قد تكونُ أجمل بكثيرٍ مما خرجتَ تبحثُ عنه!
جاءت السَّيارة، فأرسلوا واردهم إلى البئر،
لم يكن يريدُ غير الماء،
ولكنه عثر على نبيٍّ، يوسف عليه السّلام كان هناك!
الرجلُ الذي قطعت النسوة أيديهن من فرطِ وسامته،
قد عُثر عليه مصادفةً ودون تخطيط،
وإنك لا تدري ما الله قاسمٌ لكَ!

يا صاحبي أنتَ مسؤولٌ عن السَّعي
أما النتائج فبيد الله وحده!
فاخرُجْ إلى الدنيا بدلوك الفارغ،
وسمِّ الله، وألقِ في جُبِّ الأيام دلوكَ،
ما أدراكَ قد تعثرُ على شخصٍ يجعلُ بقراتِ أيامكَ العِجاف سِماناً!
ويحيلُ سنابل عمرك اليابسات خُضراً يانعات!
لعله يعبرُ بكَ قحطكَ!
أجمل ما نعثرُ عليه في هذه الدنيا،
هي تلك الأشياء التي يسوقها الله تعالى إلينا دون تخطيط!

والسّلام لقلبكَ

82

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ضاقتْ مكة بالمسلمين،
وكان الواحد منهم يشعرُ أن جبل أبي قُبيس جاثم على صدره،
وفي المدينة للإيمان متسع،
وقلوب أحنُّ،
وأوس وخزرج سيكونون سيف هذه الدعوة وعكازها!
النبيُّ ﷺ الآن بينهم معلناً بداية حقبة جديدة،
ستُغيِّر وجه الأرض إلى الأبد،
صار للإسلام دولة!
أما من بقي من الصحابة في مكة فضاقتْ عليهم صدورهم،
وكأن الواحد منهم يتنفسُ من خرم إبرة!

وبدأوا يخرجون واحداً إثر آخر،
نجمة إثر نجمة،
حيث القمر أرخى سدوله في المدينة،
وإن كان في السماء قمر يعكس ضوء الشمس،
ففي المدينة قمرٌ أضاء الأرض كلها بقرآن فيه:
الله نور السماوات والأرض!

صهيبٌ الآن على مشارف مكة،
يُمنِّي نفسه بأن يُكحِّل عينيه برؤية النبيِّ ﷺ
ولكن قريشاً التي لم ترحم نبيها،
لم تكن لتترك صهيباً وشأنه!
خرجوا في إثره يريدونه ليمنعوه من الهجرة،
فقال لهم: تعلمون أني أرماكم،
واللهِ لا تصلون إليَّ حتى أرميكم بكل سهمٍ معي،
ثم أضربكم بسيفي ما بقيَ منه شيء!
فقالوا: أتيتنا صعلوكاً فكثر مالكَ عندنا،
ثم تريدُ أن تخرج بنفسك ومالكَ،
واللهِ لا يكون ذلكَ!
فقال: أرأيتم إن تركتُ لكم مالي هل تخلون سبيلي؟
قالوا: نعم!
فدلهم على موضع المال، ومضى في سبيله!
وكان النبيُّ ﷺ في بثٍّ مباشر!
جبريل ينقلُ له الحادثة بحذافيرها،
ولما وصل صهيبُ إلى المدينة تلقاه النبيُّ ﷺ
وسلم عليه بوجهٍ باسم كأنه فلقة قمر،
وقال له: ربحَ البيعُ أبا يحيى!

يا صاحبي،
ربحَ البيعُ لأنه للّهِ!
وكل بيعٍ للّهِ رابح فلا ترَ من المشهد إلا ما ترى!

الصدقة التي تضعها في يد فقيرٍ،

استشعر معها ربح البيع!

والوقت الذي تفرغه لأخذ أحد والديك إلى الطبيب،

استشعر معه ربح البيع!

والانتقام الذي لا تنفذه لوجه اللّه وأنت قادر عليه،

استشعر معه ربح البيع!

والإساءة التي لا تردها وأنت تستطيع أن تفعل،

استشعر معها ربح البيع!

يا صاحبي،

تاجِرْ مع اللّه، فإنها تجارة لن تبور!

والسّلام لقلبكَ

83

السّلام عليكَ يا صاحبي،

ها قد أتى رمضان،
وأنتَ المُثخنُ بالذُّنوبِ والنُّدوبِ،
فرمِمْ ثُقوبَ قلبكَ،
واجْبُرْ كسر روحكَ،
وأَنِخْ بباب ربكَ مطاياك،
وقُلْ له: عبدكَ المسيءُ قد عادَ إليكَ،
أشقاه البُعدُ عنكَ،
وقسمتْ ظهره المسافاتُ،
يا اللّه: لكَ عبادٌ غيري وليس لي ربٌّ سواكَ،
أنتَ جاهي واتجاهي،
وقِبلة روحي،
فافتحْ عليَّ فتوح العارفين،
واقبلني في التائبين،
واكتبني في القائمين،
واحشرني مع الصائمين..

ها قد أتى رمضان يا صاحبي،

الشهرُ الذي تظمأ فيه الحناجر وترتوي فيه القلوب،
وتفرغُ فيه الأمعاء وتمتلئ فيه الأرواح،

ويوهنُ فيه الجسد ويقوى فيه الإيمان،
وتفترُ فيه الحركة وتشتدُّ فيه العقيدة..
فجدِّدْ إيمانكَ يا صاحبي،
فليس للّٰهِ حاجة في تركِ طعامنا وشرابنا،
ولكنه يُرسل إلينا رمضان ليُنقينا،
ويغسلنا من جديد لنكون لائقين به،
فلا يكُن حظُّك منه إلا الجوع والعطش..

رمضان ليس حِميةً غذائيةً،
رمضان راحُكَ ومُستراحُكَ،
وأنت الدامي من مشقة الطريق،
فألقِ عند اللّٰهِ رَحْلكَ..
فإنكَ من اللّٰهِ، ومع اللّٰهِ، وإلى اللّٰه..

ها قد أتى رمضان يا صاحبي،

فإنْ أنهككَ الجوع،
وأضناكَ العطش،
فتعزَّ بأولئكَ الذين فوق جوعهم وعطشهم حملوا السيوف،
ووضعوا الأرواح على الأكُفِّ،
وباعوا الدَّمَ للّٰهِ، ليبقى لنا رمضان..

رمضان غزوة بدر،

حيث سلَّ الإسلام سيفه لأول مرَّةٍ دفاعاً عن القرآن،
وسيبقى هذا السَّيف مسلولاً حتى يُقاتل آخر هذه الأمة الدَّجال..

رمضان فتح مكة،
والمدينة التي استعادتْ هويتها أخيراً، عاصمة التوحيد!
واذهبوا فأنتم الطلقاء، وبلال على ظهر الكعبة يُعلنها ملء الكون أنَّ الله أكبر..

رمضان القادسية،
سعد بن أبي وقاص وأبو محجنٍ،
وعمر بن الخطاب يسأل بعدما بُشِّرَ بالنَّصر: كم استمرَ القتال؟
فقالوا: من الفجر حتى العصر..
فقال: سبحان الله، لا يصمد الباطل أمام الحق كل هذا، لعله بذنبٍ أذنبتموه أنتم أو أنا..

رمضان بلاط الشهداء،
وعبد الرحمن الغافقي على بُعد سبعين كيلومتراً من باريس،
يقولُ: اللهمَّ خُذْ من دمي حتى ترضى!

رمضان فتح عمورية،
المُعتصم والجيشُ الذي سار غاضباً لعرض امرأةٍ واحدة،

فاللهمَّ أَرْجِعْ لنا عزَّتنا..

رمضان عين جالوت،

المُظفر قُطز والمغول،

حيث صام المجاهدون في الأرض وأفطروا في الجنة..

رمضان معركة شقحب،

ابن تيمية وابن القيم في الصف الأول من المعركة،

حيث لا يُغني الحِبر عن الدم،

ولا الفقه عن الجهاد..

ها قد أتى رمضان يا صاحبي،

إنه مصفاة القلوب، فنَقِّ قلبكَ،

وإياكَ أن تخرجَ منه بنفس القلب الذي دخلته فيه..

والسّلام لقلبكَ

84

السّلام عليكَ يا صاحبي،

اجتمعَ وُهيب بن الورد، وسُفيان الثوري، ويوسف بن أسباط يوماً

فقال سُفيان الثوري: قد كنتُ أكره موت الفجأة قبل اليوم،

أما اليوم فوددتُ لو أني ميّت!

فقال له يوسف بن أسباط: ولِمَ؟

فقال سُفيان: لما أتخوَّفُ من الفتنة!

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء!

فقال له سُفيان: ولِمَ تكره الموت؟

فقال: لعلِّي أُصادفُ يوماً أتوبُ فيه وأعملُ صالحاً،

ثم قالا لوهيبٍ: أيُّ شيءٍ تقولُ أنتَ؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، ما اختاره الله لي، كان أحبَّ إليَّ!

يا لإيمان الأوائل يا صاحبي،

فأما سُفيان فالموتُ أحبُّ إليه من الفتنة في الدين،

فإن لم يعِش معافى في عقيدته، فقبرٌ يضمّه،

تخيَّلْ هذا الحرص العجيب على الخروج فائزاً من الدنيا،

إنه لا يحفل كم سيعيش وإنما كيف؟!

يا صاحبي،

بطولة نوحٍ عليه السّلام ليست في السنوات التي عاشها،

وإنما في الطريقة التي عاش بها تلكَ السنوات،

تخيَّلْ هذه العظمة زُهاء ألف سنةٍ يمشي فيها ثابتاً إلى الله!

على أن سعد بن معاذ لم يعش إلا ستًا وثلاثين سنة،

اهتزَّ لموته عرش الرحمن، وشيَّعه سبعون ألف ملكٍ!

لا يهم أن يكون العمرُ طويلاً أم قصيراً يا صاحبي،

المهم أن يكون حافلاً بالسير إلى الله!

والآن دعكَ من سُفيان الثوري وتعالَ معي إلى يوسف بن أسباط،

إنَّ له وجهة نظرٍ أُخرى!

إنه يريدُ أن يعيش ليعبد الله أكثر، ويتوب أكثر، ويتقرَّب من الله أكثر!

وإن عُمر المؤمن لا يزيده من اللهِ إلا قُرباً،

ولستُ أُناقض كلامي الأول هنا !

على العكس تمامًا،

لو تأملتَ كلامي جيداً لوجدتَ أني أجمعُ بين الفكرتين!

فكرة أن يعملَ الإنسان كأنه سيموتُ غداً،

وفكرة أنه يريدُ أن يعيش أكثر ليرتقي في الإيمان أكثر،

أما بلغكَ أن أخوين جاءا إلى النبيِّ ﷺ فأسلما بين يديه،

وكان أحدهما مجتهداً في العبادة أكثر من أخيه،

وأنه استشهد ذات غزوة،

ثم إنَّ الآخر ماتَ بعد مُدَّةٍ،

فكأنَّ الناس تحدثوا أن الأول قد سبقَ،
فقال لهم النبيُّ ﷺ: ألمْ يكن الآخر يُصلي، وأدركَ رمضان،
فما أدراكم ما بلغتْ به صلاته وصيامه؟!

والآن يا صاحبي دعكَ من الثوري ويوسف،
وألقِ رحلكَ عند وُهيب بن الورد،
فقد كان في هذه الحادثة أفقه الثلاثة،
ذاك رجلٌ بلغ من أدب العبد مع ربه أن أسلمه زمام أمره،
فما اختاره الله له كان أحبَّ إليه،

يا صاحبي،
كُلنا في هذه الحياة نُريد أشياء،
ولكل منا أُمنياتٍ يطلبها من الله بحرارة،
ولا بأس في أن يتمنى العبدُ،
ومن تمام العبادة أن يلتجىءُ المؤمن إلى الله بالدعاء،
يسأل الله القليل والكثير،
ولكن لن يصل الإنسان إلى تمام العبودية،
حتى يعلم أن اختيار اللهِ له خيرٌ من اختياره لنفسه!

يا صاحبي،
ما منا من أحدٍ إلا وألحَّ على اللهِ يوماً بطلبٍ،
رأى أن حياته ستصيرُ جحيماً إن لم يأخذه،
ثم إنَّ الله منعه منه فلم يعطهِ سؤاله،

ثم دارت الأيام ليكتشف أن الخير كل الخير في أن لا يُعطاه!

يا صاحبي،

إنَّ في المنعِ عطاءً لا يُدرك إلا مع الوقت،

وفي عدم إجابة الدعاء حمايةً لن تكتشفها إلا إذا دارت الأيام بكَ،

فأسلِمْ خطامَ نفسِكَ لربكَ وقُلْ له:

ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤكَ!

والسّلام لقلبكَ

85

السَّـلامُ عليكَ يا صاحبي،

السَّـلامُ على قلبكَ من أن يُكسر،
فإن كسر القلب موجع واللّهِ وإن لم يُحدث صوتاً،
وأشدُّ ما في كسر القلب أعاذك اللّه منه،
أن لا جبيرة له!

ستبقى دومًا تتحسس هذا الشرخ الذي حدث،
مهما تظاهرتَ أن هذه الفجوة قد التأمَتْ!

السّلامُ على قلبكَ من دُنيا ليس لها أمان،
ولا يعرفُ المرءُ فيها من أي جهةٍ تأتيه الصفعة،
ولا من أي يد تأتيه الطعنة!

والسّلامُ على قلبكَ من تقلُّب الأيام على غير الوجهة التي تُحب،
السلام على قلبك من الهجران بعد الوصل فإنه موجع،
ومن النأي بعد الوصل فإنه أليم،
ومن الوحشة بعد الأنس فإنها ذميمة!

السّلام على قلبكَ ليبقى نقياً كأول لحظةٍ خلقه اللّه بها،
أبيضَ يسُرُّ الناظرين، ويسرُّكَ أنتَ،

لا شيء أسعد من أن ينظر المرءُ إلى قلبه،
فيجده خالياً من الحقد والحسد والكراهية ورغبة الانتقام والتشفّي!

السّلام على روحك لتبقى عُلويَّةً تحِنُّ إلى خالقها،
ولا تتمرغ بلوثة الطين الأرضي!

السّلام على ضميرك ليبقى يقظاً منتبهاً،
كي لا يؤذي أحدًا بكلمة، ولا يرميه حتى بوردة!

السّلام على فِطرتكَ لتبقى سليمة،
ترى الحق حقاً وتتبعه، وترى الباطل باطلاً فتجتنبه،
أشدُّ عقوبة يُرمى بها المرءُ يا صاحبي هي فساد فطرته،
أن يستميتَ في الدفاع عن باطلٍ وهو يحسبهُ حقاً،
وأن يستميتَ في محاربة حق وهو يحسبه باطلاً!
وإني أعيذك من قول ربك: ﴿...يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

السَّلام على إيمانك ليبقى غصناً طرياً كأول مرَّةٍ،
لامست بشاشته لا إله إلا الله،
فلا تهتك عِرضاً، ولا تفضحُ سَتراً،
ولا تحقر ذنباً مهما كان!

والسلام لقلبكَ!

86

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

تسألني: لماذا تتغير ردات أفعالنا على حدثٍ واحدٍ رغم أن الحدث هو نفسه فهل نحن تغيرنا؟!

فأقول لكَ: أُجيبك مباشرة أم أضربُ لكَ مثلاً أولاً؟

وكعادتك تُسرج لي صهوة الكلام،

وتشير بيدك بما يوحي أن اِضربْ مثلاً أولاً!

حسناً يا صاحبي!

اصطحبَ الأبُ ابنه معه لزيارة صديقٍ له،

وكان طريقهما من السوق،

فسمعا رجلاً ينادي على جَملٍ يريدُ أن يبيعه بدرهم،

فقال الابن لأبيه: يا أبتِ، اشترِ لنا جملاً.

فقال الأب: بدرهم، إنه غالٍ!

وبعد سنةٍ تكرر هذا الموقف بحذافيره،

مرا بالسوق وكان رجلٌ يُنادي على جملٍ يريدُ أن يبيعه بمئة درهم،

فتقدَّم الأب من البائع، وناوله مئة درهمٍ، وأخذ الجمل ومضى!

قال الابن لأبيه والدهشة على محياه:

يا أبتِ، في العام الماضي طلبتُ منكَ أن تشتري جملاً،
فقلتَ لي إنه غالٍ،
وقد كان ثمنه درهماً، واليوم دفعتَ ثمنه مئة درهم!
ابتسمَ الأبُ، وقال لابنه:
يا بُنيَّ، إنَّ كل ثمنٍ مهما كان قليلاً هو كثير على من لا يملكه!
وكل ثمنٍ مهما كان كثيراً هو قليل على من يملكه!

في العام الماضي لم يكن معي درهم،
ولو باعوني الأرض كلها بدرهم لوجدتها باهظة الثمن لأني لا أملكه!
أما هذا العام فقد فتح اللّه علينا،
والمئة درهم عندي أقل من الدرهم الذي لم يكن معي العام الماضي!

أظنُّ أن الصورة صارت واضحة الآن،
وأن ما أُريد قوله قد صار جلياً!

المواقف هي ذاتها يا صاحبي،
ولكنها حين تمرُّ بنا لا نكون نحن ذاتنا كل مرَّةٍ،
لهذا بالضبط تختلفُ ردَّات أفعالنا!

تمرُّ بالإنسان لحظات يستطيع فيها أن يحمل جبال الدنيا كلها،
ثم تمرُّ به لحظة أخرى لا يستطيع فيها أن يحمل حجراً واحداً!

وتمرُّ بالإنسان لحظات لا تهزه فيها رياح العالم كله مهما كانت عاصفة،
ثم تمرُّ به لحظة أخرى تطرحه أرضاً نسمة خفيفة!

يا صاحبي،
نحن أحياناً نتلقى طعنةً بثباتٍ،
ولكننا ننهار أمام خذلان صغير،
ذاك أن الروح تكون جاثية على ركبتيها
مهما بدا الجسد منتصباً للناس!

يا صاحبي،
نحن لا ننهار مرَّةً واحدة ولكنها التراكمات!
اُنظُرْ للأشجار الضخمة حين يحاولون اجتثاثها،
ضربة، عشر ضربات، عشرون ضربة،
ثم أخيراً تنهار وتقع على الأرض من ضربةٍ أخيرة لم تكن أقوى من سابقاتها،
كل ما في الأمر أن الضربات السابقة قد أدمتها،
أما الضربة الأخيرة فكشفتْ حجم الضرر السابق،
وهكذا نحن!

والسّلام لقلبكَ

87

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

كان الوزير ابن الزَّيات قاسياً غليظاً،
وكان يقول: ما رحِمتُ أحداً قط، لأن الرحمة خَوَرٌ في الطبع!

ثم دار الزمان، وانقلبت الأدوار، ودخلَ السِّجن،
فوضعه أعداؤه في قفصٍ ضيِّق، في جوانبه مسامير،
فكان كلما تحرَّكَ انغرزت في جسده،
فيصيحُ: ارحموني، ارحموني!
فيقول له سجّانه: الرحمة خَوَرٌ في الطبع!

يا صاحبي،
هذه سُنة الله في الكون،
كل إنسانٍ سيشرب من الكأس التي سقى الناس بها،
الظالم سيُبتلى بمن هو أظلم منه،
والقاسي سيُبتلى بمن هو أقسى منه،
والضد صحيح، والعكسٍ مُشاهدٌ عياناً!
من لانَ للناس ألانَ الله له قلوب الناس،
ومن جبرَ جُبِر،
ومن مشى في حاجة الناس قيَّد اللهُ له من يمشي في حاجته!

يا صاحبي،
أنتَ في يومك هذا،
إنما تختار شكل أيامك القادمة!
أتعرِفُ لماذا يأمن الشهيد فتنة القبر؟!
هذا لأنه عاشَ من قبل فتنة السَّيف،
واللّه أرحم من أن يجمع عليه الفتنتين!

وما امتدتْ يد إخوة يوسف عليه السلام تسأله الصدقة،
إلا لأنها قبضتْ ثمنه من قبل!

وما أُصيبتْ زليخة بالعمى،
إلا لأنها حرمتْ يوسف عليه السلام النظر في الفضاء الرَّحب،

وأنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام،
فلأنه أُلقي في النار عرياناً كما يقول ابن حجر!

وما تجاوز اللّه عن عبده الغني يوم القيامة الذي يأتيه
وليست له حسنة غير تجاوزه عن الناس،
إلا لأن الجزاء من جنس العمل!

يا صاحبي،
أنتَ اليوم زارعٌ وغداً حاصد،
فأحسِنْ غراسكَ لتسعدَ بحصادك،

ومن عدل اللّه أن أغلب الغراس يُحصد في الدنيا،
ولكنه سبحانه قد يؤجل لحكمته بعض الحصاد للآخرة!
فإن فاتكَ هنا حصاد كل خيرٍ زرعته،
فثق أنه لن يفوتك في الآخرة!

والسّلام لقلبكَ

88

السَّلام عليكَ يا صاحبي،

بقيَ الأحنف بن قيس يصوم تطوعاً حتى بلغ من العمر عتياً،
فقيل له ذات يوم: إنكَ كبير والصوم يُتعبك،
فقال: إني أُعدُّه لسفر طويل،
لسفرٍ طويل يا صاحبي، فتأملها!

ولستُ أريد أن أُخيفك مع أنَّ من أخافكَ فقد أمّنكَ،
ومن أمّنكَ فقد أخافكَ!
ولكني أُناديك: الزاد، الزادَ!

ما بعد الحياة سفر إلى الله يا صاحبي،
والدنيا موضع التزود، فتزوَّد!
وكلما صعب عليكَ أمر تعزَّ بالجنّة!

يا صاحبي،
كان النبيُّ ﷺ يُعزّي أصحابه بالجنة دائماً،
تُقطع ذراعي جعفر بن أبي طالب،
فيخبرهم أنَّ الله قد أبدله بهما جناحين في الجنة،

ويرى الصحابة مناديل حرير لملوك فارس يعجبون به،

فيخبرهم أن مناديل سعد بن معاذ في الجنة أجمل منها!
ويموت لأحدهم ولد صغير،
فيخبره أنه في كفالة إبراهيم عليه السلام وسارة

ويموت عبد الله بن حزام فيبكيه جابر ابنه،
فيخبره أن الله أحيا أباه وكلمه كفاحاً،
وقال له: عبدي، تمنَّ!

ويمرُّ على آل ياسر في العذاب،
فيقول معزياً: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة،
الجنة عزاء عن كل مشقة يا صاحبي فتعزَّ!

يا صاحبي،
هذه الدنيا ستنقضي بحلوها ومرها،
جوع الصيام وعطشه سينقضي ويثبت الأجر،
وتعب القيام سيزول وتبقى الحسنات،
والممشى إلى المسجد سيُنسى أما الأجر فيُذكر،
فتذكر لحظة دخول الجنة يهُنْ عليك كل شيء!

والسلام لقلبكَ

89

السّلامُ عليكَ يا صاحبي،

أحياناً يعزُّ علينا أن الأمر قد جاء ممن يعزُّ علينا!
فالموجع ليس الضربة وإنما يد مَنْ!
والجارح ليس الكلمة وإنما من فم مَنْ!

والموقف ليس قاتلاً إلى هذه الدرجة،
ولكن الإنسان يتأذى بقدر العشم!

يا صاحبي،
أول ضربة فأس،
لا تفُتُّ عضد الشجرة،
ما يفتُّ عضدها هو أن عصا الفأس منها!

السنبلة لا تتأوه تحت المنجل،
لأنها لا تأمل منه غير أن يكون قاطعاً،
تسقطُ الشجرة أخيراً تحت ضربات الفأس،
وتسقط السنبلة بضربة المنجل!

السقوط واحد،
ولكن المشاعر ليس سواءً!
سقوط الشجرة مصاحب بالخذلان والعقوق!

أن يجتثك من زرعته،
وأن تهون على من لم يهُنْ عليك،
وأن يحقركَ من كنت تغطي وجهه بيدك،
كي لا تؤذيه أشعة الشمس!

أما سقوط السنبلة فشيء عادي جداً،
وطقس رتيب من طقوس الحصاد،
هكذا كانت العلاقة بينها وبين المنجل على الدوام،
وهكذا ستبقى إلى الأبد،
لا شيء موجع إطلاقاً!

الموجع هو تحول القلوب يا صاحبي،
الموجع هو التواجه بعد العناق،
الموجع أن يبكيك الذي مسحتَ دمعه،
ويكسر خاطرك الذي جعلتَ خاطره دوماً قبل خاطركَ!

يا صاحبي موجع جداً ضياع العشم،
وأن لا يكون الناس على مقدار قلبك،
وأن لا يستحقوا كل هذا السَّعي الذي سعيته،
صدقني مؤلم أن تركض وتركض
ثم تكتشف أنك كنتَ تركض في الاتجاه الخاطئ،
وأنك لم تقترب منهم وإنما قد ابتعدتَ عن نفسكَ!

والسلام لقلبكَ

90

السَّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: هل الأخذ بالسبب يُنافي التوكل على الله؟
ولأول مرّةٍ أعجبُ من سؤال تسألنيه!

كنتُ أحسبُ أن الأمر بَدَهي، وأنه قد استقام لكَ فهمه،
فقد سبقَ وعرَّجتُ في كلامي على شيءٍ من هذا وإن تلميحاً،
ولكن لا بأس أن أسوق الأمر إليكَ الآن تفصيلاً!

يا صاحبي،
مرَّ عمر بن الخطاب برجلٍ قد أُصيب بعيره بالجرب،
فإذا هو رافع يديه يدعو الله تعالى أن يشفيه له،
فقال له: لو أيَّدتَ دعاءَكَ بشيءٍ من القطران!

يعلمُ عمر يقيناً أن الله سبحانه قادر على أن يشفي بغير دواء!
ولكنه يعلمُ أيضاً أن هذه الدنيا دار أسباب،
والإنسان مطالب بالأخذ بالسبب ما استطاع،
ولكنه لا يضعُ يقينه على الأسباب وإنما على رب الأسباب!

الطبيب لا يشفي دون إذن الله،
ولكن هذا لا يعني أن نتوقف عن التداوي،

بالمقابل لا نعتقد أن الدواء شافٍ من تلقاء نفسه،
وإنما بأمر الله.
هكذا هو الأمر،
موازنة بين الأخذ بالسبب،
وبين التوكل على الله!

يا صاحبي،
لو تأملتَ في هجرة النبيِّ ﷺ من مكة إلى المدينة،
لفهمتَ الأمر كله!
فالسيرة ليست مادة تاريخية تُروى بقدر ما هي مناهج حياة!

خرجَ النبيُّ ﷺ رفقة أبي بكر خفية وهذا أخذ بالسبب،
واصطحب معه دليلاً يدله على الطريق،
هو نبيٌّ ويعرفُ أنه محفوف بعناية الله،
وأنه أكرم على ربه من أن يتركه يضيع في الصحراء،
ولكنه أخذ بالسبب لأنه يعرف أن الدنيا دار أسباب!
وليعلمنا أنها لا تنافي التوكل على الله،
وإنما هي واقعة في قدر الله!

وهو يعرف أنه لن يموت جوعاً في طريق هجرته،
ولكنه أخذ معه زاداً!
وهو يعلمُ أن الله سيعمي عنه عيون المشركين،

ولكنه كان يأمر عبد الرحمن بن أبي بكر بأن يمحو بأغنامه أثر الخطوات إلى الغار!

ويوم أُحدٍ لبس درعين لا درعاً واحدةً،
هو يعلمُ يقيناً أن الدروع لا تمنع من الموت،
ولكن المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ!

يا صاحبي،
حتى المعجزات التي هي بالأساس خارقة للعادة،
وتجري على عكس ما تجري به السُّنن الإلهية،
كان لها سببٌ ظاهر!

ألم ترَ أن الله قال لمريم ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾

وقد كان قادراً أن يُسقط عليها الرطب بلا هزّ،
فضلاً أن مريم لم تكن تستطيع هزها أصلاً،
ولكنه طلبَ منها شيئاً من السعي!

يا صاحبي،
عندما خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل وتبعهم فرعون بجنوده،
ووصل الفريقان إلى شاطئ البحر،

قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ﴾

العِصيُّ لا تشقُّ البحار يا صاحبي،
وليست سبباً مبذولاً في هذا الموضوع،
وما انشقَّ البحر بضربة موسى عليه السلام،
والله تعالى لا يريدُ من العبد بذل أكثر من السبب الذي يستطيعه!

يا صاحبي،
عندما يئس نوح عليه السلام من قومه،
وعلم يقيناً أنه لن يؤمن معه غير الذين آمنوا،
رفع يديه ودعا عليهم،
فجاءه الأمر الإلهي ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾!

الربُّ القادر الذي أنجى عبده والمؤمنين معه بالسفينة،
كان قادراً أن ينجيهم بدونها،
ولكنه أراد منهم السّعي،
فالسبب ليس اختباراً لقوة الرب،
فهو سبحانه ربُّ الأسباب،
ولكنها اختبار لقوة فهم العبد لسنة الله في الكون!

يا صاحبي،
عندما طال مرض أيوب عليه السّلام،
وشاء الله أن يتمنن عليه بالشفاء،

قال له﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾

يستطيعُ اللّه أن يشفيه بلا سعي ولا دواء ولا شراب،
ولكن بذل السبب مطلوب،
فإن كان كل هؤلاء لم يزهدوا بالأسباب،
فلا تنتظِرْ أنتَ نجاحاً بلا سببٍ ولا سعي!

والسلام لقلبكَ

91

السَّلام عليكَ يا صاحبي،

سـألَ رجـلٌ هنـد بنـت النعمـان بـن المنـذر آخـر ملـوك المنـاذرة فـي اليمـن،
فقال لها: حدثيني عن مُلككم وما كُنتم فيه!
فقالتْ: أأختصرُ أم أُفصِّل؟
فقال: اختصري!
فقالتْ: أصبحنـا وكل مـن رأيتَ عبـداً لنـا، وأمسـينا وعدُوُّنـا ممـن يرحمنا!

إني أُعيذك باللهِ من زوال النِّعم يا صاحبي،
من أن تُدبر الدنيا عنك بعد إقبالها،
ومـن أن تنـزوي عنـك الخيـرات بعـد بقائهـا فـي يـدك ردحـاً مـن الزمـن،
ومن أن يُستغنى عنكَ بعد أن كان لا يُعقد أمر دون حضورك،
ومن أن يُستهان بك بعد عِزٍّ،
وتُزدرى بعد توقير!

موحشة هي الدنيا يا صاحبي إذا انقلبتْ بالمرء،
فمن ذاق العِز قتله الذُّل والحاجة بعد ذلك،
قضمه ببطءٍ كما يقضم فأرٌ نَهِمٌ كنزة صوفٍ،

حتى لا يُبقيها صالحة لشيءٍ!

يا صاحبي،
وجع المريض الذي وُلد في المرض،
أخفُّ من وجع من ذاق العافية ثم مرض!

ووجع الفقير الذي وُلد في الفقر،
أخف من وجع من ذاق الغِنى ثم افتقر!

ووجع الذي ليس له حبيب،
أخف من وجع من ذاق طعم الحُب ثم فقده!

كل حرمان صعب،
ولكن أن يتحسَّر المرءُ على ما لم يجرب لذته،
أخف وطأة، وأقل وجعاً من أن يتحسَّر على فقد ما جرَّبه!

وإني أعيذكَ باللهِ أن تبتعد عنه بعد قُربٍ،
فهذا واللهِ من زوال النِعم!
أن يفقدكَ ممشاكَ إلى المسجد بعد حفظ خطواتكَ،
وأن يشتاقكَ مكان سجودك فلا يجدك!
وأن يعلو الغبار مصحفك بعد أن حفظ جيداً رائحة أصابعك!
وأن تثني يدك بخلاً بعد أن امتدت بالصدقة!
وأن يأتي الصباح ولا ركعتي ضحى لكَ،

وأن يكون ثلث أخير من الليل وليس لكَ فيه شيءٌ من قيامكَ القديم!

يا صاحبي،
من ابتعدَ بعد قرب عاش تائهاً وماتَ تائهاً،
فلا له لذة الطائعين،
ولا له راحة العاصين،
هذا إن كان في المعصية راحة أساساً!

والسّلام لقلبكَ

92

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تقولُ لي: أشعرُ بالعجز حين أرى هجمةً مسعورة على هذا الدين،
ولستُ أملكُ أكثر من كلمة!
فأقول لك: الكلمة أحياناً أهم من البندقية!
وإن كان كلاهما لا يستغني عن الآخر ولا يسدُّ مسدَّه،
وليس عن عبثٍ كان سيد الشهداء حمزة،
ورجل قام إلى ظالمٍ فأمره ونهاه، فقتله!

رُبَّ كلمةٍ في موضعها أهم من ضربةٍ بسيفٍ،
فإن الأيدي الضاربة بالسيف كثيرة،
ولكن الألسن الناطقة بالحق ليست كذلك!

يا صاحبي،
مرَّ عمر بن الخطاب بالمسجد،
فرأى حسان بن ثابتٍ يُنشِدُ فيه شعراً فانتهره،
لا استهانةً بالشعر، وإنما إعلاءً من قيمة المسجد!
ولكن حسَّان بن ثابت قال له:
يا أمير المؤمنين، كنتُ أُنشِدُ شِعراً في المسجد وفيه من هو خير منك!

ثم التفتَ إلى أبي هريرة وقال له:

نشدتُكَ اللّه، أما سمعتَ النبيَّ ﷺ يقول لي:

يا حسَّان أَجِبْ عني، اللهمَّ أيِّده بروح القُدس؟!

فقال أبو هريرة: اللهمَّ نعم!

فتركه عمر ومضى!

يا صاحبي،

عندما احتدمت المعارك العسكرية،

لاذَ هذا الدين بسيف خالدٍ وأبي عبيدة والمُثنَّى،

وعندما احتدمتْ المعارك الفكرية،

لاذ هذا الدين بقصائد حسان بن ثابت،

خالد لا ينفعُ حيث ينفعُ حسان،

وكل قصائد حسان لا تسدُّ مكان ضربةٍ من سيف خالد بن الوليد!

الفكرة، كل الفكرة يا صاحبي أن هذا الدين ثغُور شتىً،

وكل واحدٍ فينا على ثغرٍ،

فلا تستهِنَّ أبداً بثغركَ،

ما دام اللّه قد أعطاك سلاح الكلمة وبلاغتها،

وَحِدَّة العبادة ونصلها،

فقد إئتمنكَ على ثغرٍ من ثغور دينه،

فالزمه ولا تحقرنَّ نفسك!

يا صاحبي،

إن الغنيَّ قد جُعِلَ على ثغر الصدقة،

والأديب والمفكر قد جُعل على ثغر حماية العقيدة، ورد الشبهات، وقول كلمة الحق!

والمقاتل قد جُعل على ثغر الحرب،

والمُدرس قد جُعل على ثغر بناء الجيل،

والأم قد جُعلت على ثغر تربية الأبطال،

والإعلامي قد جُعل على ثغر حماية ظهر هذا الدين من أن يُطعن بكلمة،

والداعية على ثغر الأخذ بيد الناس إلى الله!

يا صاحبي،

واللهِ هي ثغور ومن لزِمَ ثغره طرح الله تعالى البركة في حراسته!

حرس البخاري ثغر الحديث فكان الصحيح!

وحرس مسلم ثغر السُّنة فشدَّ أزر البخاري!

وحرس مالك ثغر الفقه فكان الموطأ!

وحرس أحمد بن حنبل ثغر العقيدة فكان المُسند!

وحمى الله بظهره الذي جُلد دين أمةٍ كاملةٍ!

والسلام لقلبكَ

93

السّلامُ عليكَ يا صاحبي،

قال الربيع بن خيثم لامرأته: اصنعي لنا خبيصاً!
ولأنها أكلة شاقة في طبخها، لذيذة في طعمها،
ظنَّتْ أنه سيدعو إلى طعامهْ أحد الأعيان،
فعادَ ومعه رجل مجنون!
فجعلَ يسكبُ له ويطعمه، ولعاب الرجل يسيل،
فلما ذهبَ الرجل المجنون من عنده،
قالتْ له امرأته: تكلّفنا وصنعنا، وما يدري هذا ما أكل!
فقال لها: ولكن الله يدري!

تأملها جيداً يا صاحبي،
ولكن الله يدري!

فاعمل لوجه الله ولا تنتظِرْ عوضاً ولا مديحاً،
لن يضرك أن لا تُسلط عليكَ الأضواء،
وأن لا تنال التصفيق،
أساساً كل شيء علِمَ به الناس،
كان أدعى أن يداخله الرياء والعُجب،
وما داخله الرياء ذهبَ أدراج الرياح!

يا صاحبي يهزني عميقاً حديث للنبيِّ ﷺ
أخبر فيه أن كل نبي يأتي يوم القيامة بمن آمنوا معه،
وعدَّ أعداداً كبيرة وصغيرة،
ثم قال: ويأتي النبيُّ وليس معه أحد!

تخيّلْ معي هذا المشهد نبيٌّ مؤيد بالوحي،
دعا، وتعبَ، وبيّنَ، ووضَّح، ودلَّ، وتحبّب،
ونصحَ، وصدقَ، وصفحَ، وغفرَ،
ولم يؤمن به أحد!
ولكنه يُحشر يوم القيامة في زمرة الأنبياء،
لأنه كان يعملُ لوجه الله!
أما الأتباع، والنتائج، والتصفيق، والمديح فللهِ،
إن شاءَ أعطاها للعبد وإن شاء منعها عنه!

يا صاحبي،
اعمل لوجهِ واحدٍ يكفيكَ الوجوه كلها!
الصدقة التي ليست للهِ لا حاجة للهِ بها،
وجبر الخاطر تبتغي من ورائه أجراً في الدنيا،
أتلفتَ فيه أجركَ في الآخرة!
وزيارة المريض للمنفعة، قعودك في بيتك كان خير منها!
فأن لا يعمل المرء خيراً ونيته خير،
خير من أن يعمل صالحاً ونيته سوء!

والسلام لقلبكَ

94

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

قرأتُ البارحة شيئاً فاقشعرَّ بدني؛
كتبتْ إحداهُنَّ تقول:
«منذ أكثر من سنتين لم أكن محجبة،
وكان في صفي فتاة تلبسُ الخمار،
وكانت تنظرُ إليَّ باستحقار،
وكلما مرَّتْ بي رمتني بجارح التعليقات،
لم تمضِ سنة حتى كنتُ أنا قد تحجبتُ ولبستُ الخمار،
بينما خلعته هي، واليوم ليستْ محجبة أساساً!»

يا صاحبي،
هذه ليستْ المرَّة الأولى التي أقرأ فيها شيئاً من هذا النوع،
حتى صرتُ على قناعة أن من نظرَ في ذنوب الناس كأنه ربّ،
لا يوشك أن تزل قدمه ويصبح مكان أولئك الذين نظر إليهم بعين طاعته باستعلاء،
وأنه من نظرَ في ذنوب الناس كأنه عبد ضعيف،
ما استقام إلا بفضل الله عليه،
فحمدَ الله على العافية،
ودعا الناس بالهداية،
إلا وعصمه الله من الوقوع فيما وقع به الناس!

يا صاحبي،
واللّهِ ما استقام أحدٌ للّه بقوته،
ولكن اللّه تكرّم عليه بالهداية!
وما ابتعد أحدٌ عن اللّه مستغنياً بنفسه،
ولكن اللّه استغنى عنه أولاً!
وإني أعيذكَ باللّه أن تلقى عاصياً فتزدريه،
وإنما اِكره المعصية، وتحبّب إلى العاصي،
فلولا لطف اللّه بك لكنتَ مكانه!

وإني أعيذكَ أن تُعيِّر أحداً بمعصيته،
فمن عيَّر وقع بما عيَّر به ولو بعد حين!

يا صاحبي،
عندما أفلس محمد بن سيرين ودخل السجن
بسبب خسارته لتجارته وعجزه عن سداد ديونه،
قال: لقد كنتُ أنتظر هذه اللحظة منذ عشرين سنة،
فقد عيّرتُ رجلاً وقلتُ له: يا مفلس!

فإذا كانتْ هذه عاقبة التعيير في عثرات الدنيا،
فما بالك بعاقبة التعيير في عثرات الدِّين؟!
وللّهِ در عبد اللّه بن عمر ما أفقهه!
كان يقول: واللّهِ لو عيَّرتُ امرأة بحبَلِها،
لخشيتُ أن أحبَلَ!

والسلام لقلبكَ

95

السَّـلامُ عليكَ يا صاحبي،

كنتُ البارحة أتأمل في قصة سيدنا يونس عليه السلام،
ويا لها من قصة لمن وعاها بقلبه قبل عقله،
أعجبني كيف أنه لما التقمه الحوت وصار في بطنه،
عرف من أي ناحية مكشوفة من الدرع انغرسَ فيه سهم الابتلاء،
عرف جيداً،
فسارع في التوبة والاستغفار قائلاً
﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

أعجبني أنه أول ما أصابه الابتلاء،
بحث عن السبب في نفسه،
قبل أن يبحث عنه عند الآخرين!
صحيح أنه نبي ومعصوم،
وأنه لم يُخطئ أساساً بحكم العصمة،
ولكنه فعل خلاف الأولى!
فهو من شدة غيرته على دين الله،
عندما رأى تكذيب قومه له استعجل عذاب الله لهم،
قيَّم موقفه بدقة، ورأى موضع قدميه،
فأسرع بالرجوع!

يا صاحبي،

إن اللّه يصيبُ منا أحياناً ليعيدنا إليه،

صدقني لو فهم العبد هذا المقصد،

لعاد إلى اللّه فوراً مجروراً من قلبه،

أن يزهد هو في اللّه أو يبتعد،

فلا يزهد اللّه فيه، ولا يرضى بُعده عنه!

هذه لوحدها تستحق سجدة شكر تدوم أبد الدهر!

أن يبتعد الفقير فيقربه الغني،

أن يهجر المحتاج فيصله المستغني عنه،

أن يُفلت الضعيف فيمسكه القوي،

لو فهم العبد هذا المعنى فقط لهام قلبه بربه،

ولخجل من لحظة الابتعاد!

والسلام لقلبكَ

96

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

تُحدِّثني عن الأحقاد،

وتسألني: لماذا يكرهني فلان ولم أفعل له شيئاً؟

الكراهية شعور مقيت يا صاحبي،

وأعان الله الكاره المليء بالأحقاد على نفسه،

فهو إنسان عاجز عن حُبِّ نفسه أولاً،

لهذا لا تنتظر منه أن يُحبَّ الآخرين!

ولا تخلط بين الأناني والحقود!

الأناني لا يكره الآخرين ولكنه يُحبُّ نفسه أكثر منهم،

وهذا وإن كان مستقبحاً إلا أنه مفهوم وله مبرر ما،

فهذه النفس البشرية إن لم تُلجم بلجام التقوى جمحتْ!

أما الحقود فلا يُحبُّ أحداً حتى نفسه،

إنه صغير بعين نفسه،

يجد فيها وضاعة،

وما كراهيته للآخرين إلا كراهية نفسه التي فاضتْ على الآخرين بعدما امتلأ هو بها!

يا صاحبي،

من قال لكَ أن الكاره يحتاج إلى مبررات،

كره إبليسُ آدم عليه السلام قبل أن ينفخ اللّه تعالى فيه الروح،

هكذا دون أي مواجهة بينهما ولا احتكاك!

وعندما جاء أمر اللّه تعالى للملائكة بالسجود،

ومن بينهم إبليس ضمناً لأن الأمر للشريف أمرٌ للأقل منه!

فمثلاً إذا قلتَ للوزراء عندما يدخل رئيس الدولة قفوا له احتراماً،

فهذا لا يعني أبداً أن يقوم الوزراء ويبقى مرافقوهم جالسين،

لقد دخلوا في الأمر بحكم منطق الأشياء!

رفضَ إبليسُ السجود حقداً وحسداً،

لأنه لامس وضاعة قد وجدها في نفسه،

وعقدة نقص تجاه آدم عليه السلام لم يستطِعْ أن يكتمها،

إذ صار الأمر علنياً هذه المرة!

يا صاحبي،

إن الكاره أخطر أنواع البشر على الإطلاق،

الأناني يمكن أن ترضيه بأن تعطيه حصةً أكبر،

والغاضب يمكن أن ترضيه بأن تعتذر منه،

والعدواني يمكن أن تتقي شره بالابتعاد عنه،

أما الكاره فإن تركته تبعكَ،

وإن أغلقتَ بوجهه الباب جاءكَ من النافذة،

لا شيء يرضيه مهما حاولت معه،

ذلك أن المشكلة فيه بالأساس لا فيك!

والسلام لقلبكَ

97

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

أقولُ لكَ: للّهِ حكمة في كل إنسان يخلقه،
ومهما غابت هذه الحكمة عنك ثِقْ أنها موجودة فعلاً!
ولكن اللّه سبحانه إن لم يخبرنا عن الحكمة في خلق المخلوقات فلسببين رئيسين:
الأول: أنه لا يُسأل عمَّا يفعل،
وهذه أول خطوات أدب العبد مع الرّب،
وبدونها لا يصِحُّ الإيمان،
أو لنقل أنه يصبحُ إيماناً أعرجَ!
الثاني: أن اللّه سبحانه أراد منا أن نُعمل عقولنا في حوادث التاريخ،
لنستشفَّ منها الدروس والعِبر!
أليس العصف الذهني، والتفكير الناقد،
وعدم تقديم الإجابات للمتعلمين إنما هو إفساح المجال لهم ليكتشفوها بأنفسهم من أُسس التربية الحديثة؟!
فلماذا نمدحها عند الناس، ونُشكك بها عند اللّه والعياذ بوجهه الكريم أن نُشككَ فيه!
فتقول لي: لستُ أشكك أبداً وإنما أحاول أن أفهم!
فأقولُ: يا صديقي إن محاولة الفهم هذه عبادة بحدِّ ذاتها،
ولكني أشعرُ أنكَ ترمي إلى شخصٍ بعينه!

فتجيبني قائلاً: لستُ أرمي إلى شخصٍ بعينه، ولكن بما أنكَ سألتَ، فأخبرني مثلاً عن الحكمة في خلق شخصٍ طاغية كفرعون!

يا صاحبي،

إنَّ فرعون أحد أهم النماذج التي تُضربُ على حكمة الله سبحانه في الخلق!

لولا فرعون وأمثاله لما فهمنا سُنّة الابتلاء!

ابتلاء القوي بالسلطة والجاه والسلطان،

وابتلاء الضعيف بالصبر والمجاهدة!

دون فرعون وأمثاله لن ندرك كيف أرخى الحبل للناس ليعبدوه أو يعصوه باختيارهم!

فلو جبرَ الله تعالى الناس على طاعته،

فأيُّ شيءٍ يبقى من امتحان الدنيا؟

كيف سيرسب الناس أو ينجحوا ما لم يكن لهم إرادة حُرَّة على أفعالهم؟

المُكره لا امتحان له،

والمُجبر عاجزٌ لا يُسأل!

مدُّ اللهِ الظالم بالقوة هو من باب إقامة الحُجة عليه،

وعدم تدخل الله لرفع الظلم عن المظلوم عند وقوع الظلم مباشرة،

ضروري لامتحان الصبر ومجاهدة الظلمة!

يا صاحبي،

لولا فرعون ما كان لنا أن نعرف

أنَّ الإنسان أعجز من أن يُغيِّر قدر اللّه!

فعندما رأى فرعون في منامه ناراً عظيمة تلاحقه في قصره،

وعبَّر له المفسرون ذلكَ بغلام يولد في بني إسرائيل يكون زوال ملكه على يديه،

فأصدر أمراً بذبح كل المواليد الذكور في بني إسرائيل،

بقيَ يذبحُ أعواماً طويلة،

ولكن عندما وُلد موسى عليه السلام رباه في قصره رغماً عنه،

هذا لنعرف أن قدر اللّه نافذٌ لا محالة!

يا صاحبي،

لولا فرعون ما كان لنا أن نعرف أن القلوب بيد اللّه يُعلِّقها أو يصرفها كيف يشاء!

تخيَّلْ تلك اللحظة التي رأت آسيا بنت مزاحم

الصندوق الخشبي يتهادى على مياه النيل،

فأمرتْ الحرس أن يأتوها به،

فلما فتحته ورأتْ موسى عليه السلام فيه ألقى اللّه تعالى محبّته في قلبها!

هذه المحبَّة هي التي حالت بين رقبة موسى عليه السلام وسكيّن الذبح!

ولنعرف أيضاً أن الجزاء من جنس العمل،
أم موسى التي حُرمتْ ابنها أول الأمر تنفيذاً لأمر اللّه،
جعل اللّه سبحانه لابنها أماً ثانية تخلفها فيه!

يا صاحبي،
لولا فرعون ما كان لنا أن نعرف أنه بإمكان أحدٍ أن يُفسد أحداً،
ولتذرعنا في ضلالنا وفسادنا بالبيئة والظروف،
ولكن جعل اللّه آسيا زوجة فرعون حُجَّةً على الناس كي لا يتعللوا بشريك العمر!
في قصر واحد كان الزوج يقول: أنا ربكم الأعلى،
والزوجة تسجد وتقول: سبحان ربي الأعلى!
أرأيتَ الآن حكمة اللّه البالغة؟!

يا صاحبي،
لولا فرعون ما كان لنا أن نعرف أن البيوت أسرار،
وأن الزوجين قد يعيشا تحت سقف واحد،
ويجمعهما سرير واحد،
ولكن المسافة بينهما تكون أبعد مما بين السماء والأرض!

تخيَّلْ معي هذه المفارقة،
أحد أشهر الكفار في التاريخ،
هو زوج إحدى أشهر المؤمنات في التاريخ!

يا صاحبي،

ليست المسافات هي التي تُقرب الناس أو تبعدهم،

وحدها القلوب هي التي تفعل!

يا صاحبي،

لولا فرعون ما كان لنا أن نعرف

أن الإخوة والأخوات يكونون أحياناً قطعاً من القلب،

وحين ألقت أم موسى رضيعها في النهر وجلستْ تدعو،

كانت أخته تركضُ خلف الصندوق تريدُ أن تعرف أين يلقيه اليم!

وحين رفضَ المراضعَ كلها ارتدتْ ثياب الناصحين،

تدلهم على أهل بيتٍ يكفلونه لهم،

كانت هي سبباً في أن عاد موسى عليه السلام إلى حضن أمه!

وعندما شرَّف اللّه تعالى موسى عليه السلام بالنبوة،

كان مما قاله موسى عليه السلام ﴿وأَخِي هَارُونُ هوَ أَفصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾

إنه لم يتحرَّج من أن يذكر النقطة التي يتفوق بها أخوه عليه!

الدم لا يصير ماءً يا صاحبي!

يا صاحبي،

لولا فرعون ما كان لنا أن نعرف

أن العبيد هم الذين يصنعون جلاديهم،

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوه﴾

لما رآهم قد أحنوا ظهورهم له امتطاهم،

فالطاغية لا يصبح طاغية من تلقاء نفسه،

وإنما جموع العبيد حوله هي التي تصنع طغيانه!

أرأيتَ كم كان مهماً أن يأتي فرعون لنفهم سُنة الله في الحياة!

والسلام لقلبكَ!

98

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

تجلَّدْ يا فتى ولا تئن!
أعرفُ أن الجرح موغر،
والنزف حثيث لا تكاد تقوى عليه ضمادة صبرك!
ولكن تذكَّرْ أن كل هذا من صنيعك أنتَ!
ذاك الذي جلدَكَ بطريقةٍ ما أنتَ وضعت السوط بيده،
وذاك الذي ذبحكَ أنتَ الذي خلَّيتَ الطريق بين رقبتك وسكينه،
وذاك الذي امتطاكَ أنتَ الذي انحنيتَ له!

يا صاحبي،
معاذ اللّه أن أكون بكَ شامتاً،
ولكني أُريدُ أن أُزيل غمامةً أراها على عينيك!
نحن لسنا ضحايا الآخرين،
نحن بالدرجة الأولى ضحايا أنفسنا!
أريدُ أن أُريك جرحكَ على حقيقته،
فالجرح الذي تجهله لا يمكن لك أن تُداويه،
وأنا أريد أن تشفى ولكن على بيّنة!

يا صاحبي،
طيبتك هي التي صنعت غرورهم،
وثقتك العمياء هي التي علَّمتهم الاستهانة بكَ،

وتذكَّرْ أني طالما قلتُ لكَ،
لا توقد أصابعكَ العشر شمعاً اُترك واحداً لتعضَّ عليه من الندم!

ولكن لا بأس عليك هناك مجال للتداوي،
ومتَّسع للشفاء متى أردتَ!
فتجلّدْ تجلُّد الجاهلي الذي كان يصنع صنمه من تمرٍ يعبده في النهار،
فإذا جاع آخر الليل أكله!

هكذا تعامل مع أصنام من لحمٍ ودم قدَّستها في لحظة طيش!
أنزلهم من عليائهم، واجعلهم بينً قدميك، ولا تدُسْ حتى،
تجاوزهم فقط، تجاوزهم!

يا صاحبي،
لا بأس بالجرح،
إن كان ثمنه أن تدرك الحقيقة!
ولا بأس بالخيبة،
ما دمتَ قد عرفتَ أخيراً أنهم كانوا سيئين منذ البداية!
وأن ما جمَّلهم في عينيك حسن ظنك!
يا صاحبي،
كل ثمنٍ قليل إن كان مقابله أن تُدرك!

والسلام لقلبكَ

99

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

بعثَ عمر بن عبد العزيز إسماعيلَ بن أبي حكيم
إلى القسطنطينية ليفتدي أسرى المسلمين،
وبينما هو يسيرُ سمعَ رجلاً يُنشِدُ شعراً ويقول:
أرقتُ وبان عني من يلومُ ولكن لم أنمْ أنا والهمومُ
فقال إسماعيل: رجلٌ من العربِ واللهِ!
فطرقَ عليه الباب، فلما فتحَ له، قال له: من أنتَ؟
فقال: أنا الوابصيُّ الذي أُسرتُ، فعُذِّبتُ، فجزعتُ، فدخلتُ في دينهم!
فقال له إسماعيل: إنَّ أمير المؤمنين بعثني في فداء الأسرى،
وأنتَ واللهِ أحبَّ من أفديه إنْ لم تكُنْ قد أبطنتَ الكفر!
فقال: واللهِ لقد أبطنتُ الكفر!
فقال له إسماعيل: أنشدتُكَ الله إلا رجعتَ معي، فأسلمتَ، وعدتَ إلى عهدكَ القديم!
فقال: أَأُسلِمُ وهذان ابناي؟
وإذا دخلتُ المدينة قال أحدهم يا نصراني، وقيل لولديَّ وأمهم كذلك، لا واللهِ لا أفعل!
فقال له إسماعيل: لقد كنتَ قارئاً للقرآن!
فقال: واللهِ لقد كنتُ من أقرأ الناس!
فقال له إسماعيل: فما بقي معكَ من القرآن؟

فقال: لا شيء غير هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

فعلِمَ إسماعيل أن الشقاوة قد غلبتْ عليه، فتركه ومضى!
مخيفةٌ جداً هذه القصة يا صاحبي،
تجعلُكَ تضعُ يدكَ على قلبكَ في وَجلٍ وتقول:
يا الله ثبِّتْ هذا القلب على دينك،
أَقِمْه حيثُ ترضى، وأمِتْه حيثُ ترضى،
فالأشياء ليست بروعة البدايات يا صاحبي،
وإنما بكمال النهايات!
فكُنْ دوماً خائفاً على إيمانك أن يزيغ،
وعلى قلبك أن يتعثَّر،
فلا يعرف كيف يقوم،
وأن يبتعد فلا يعرف كيف يرجع!

يا صاحبي،
لا تحسبَنَّ أنكَ استقمتَ في الطريق إلى الله بقوتك،
بل هو فضل الله عليكَ!
فسل الذي أقامكَ في طريقه أن لا يستغني عنكَ لاحقاً!
ولستُ أُيئِسُكَ من الله، معاذ الله!
ما كان هذا دأبي معكَ، ولا هو ظنِّي بربي!
ولكني أردتُ أن أقول لكَ أن كل الذين زاغت قلوبهم بعد الهداية،
إنما حسبوا أنهم اهتدوا بأنفسهم،

ثم أمنوا الفتنة، فلم يسألوا الله الثبات!

يا صاحبي،

لو استغنى أحدٌ عن الدعاء بالثبات لكان النبيُّ ﷺ

ولكنه كان يلحّ بقوله:

اللهم يا مُقلب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك

هذا وهو نبيٌّ، فكيف بي وبكَ؟!

يا صاحبي،

تأمل معي هذه الآية:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

تأمل دقة التعبير: أن تزل قدم بعد ثبوتها!

لم يقل بعد مشيها في الطريق خطوة،

ولم يقل بعد إيمان متذبذب،

وإنما بعد ثبوتها!

تخيَّلْ أن تثبتَ، وتستقيم، وتهتدي، ثم بعد ذلك تزيغ!

يا صاحبي،

لا تأمن الأيام على إيمانك،

ولا تأمن الحوادث على دينك،

فِرَّ من مواقع الفِتن فراركَ من الأسد إذا رأيته في الغابة!

لا تمتحن نفسك، قلما ينجو إنسان من الامتحان!

ولا تُلقِ قلبكَ في مواطن الشُبهات فتكون كالراعي يرعى حول الحمى،

فإنه من رعى حول الحِمى يوشك أن يقع فيه!

والسلام لقلبكَ

100

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

أقولُ لكَ: هل سمعتَ يوماً بالمرياع؟!

فأرى في عينيكَ غرابةً أعرفها حين أسألُكَ عن أمرٍ لم تسمعْ به من قبل،

فأوفِّرُ عليكَ عناءَ أن تقول: لا!

وأقولُ لكَ: المرياع هو خروفٌ من الغنم يُعزلُ عن أمه يوم ولادته،

فلا يراها ولا تراه!

ويوضعُ مع أنثى حمارٍ ليرضعَ منها حتى يعتقدَ أنها أمه!

وبعد أن يكبر يُخصى،

ولا يُحلق صوفه أبداً ليكسَبَ هيبةً،

وتنمو قرونه بفعل الإخصاء ويصبحُ ضخماً،

وتُعلَّقُ في رقبته الأجراس،

ويوضعُ في مقدمة القطيع خلف قائده الملهم!

ولكن المرياع في الحقيقة ما هو إلا بطل فارغ ذو رئاسة منقوصة!

فهو لا يسير إلا إذا سارت أنثى الحمار التي أرضعته،

وهكذا فإن المرياع الذي يبدو قائداً لأول وهلة

وإنما في الحقيقة تسوقه أتان!

ولعلّكَ الآن تسألُ يا صاحبي: وأيُّ شيءٍ أستفيده أنا من كل هذا؟

حسناً، لا تعجل يا فتى!

فإنكَ لو تأملتَ حال المرياع هذا لاكتشفتَ أنّ له كثيراً من أشباه البشر!

أُناس كثرٌ يتصدرون المشهد ولهم أتباع يسيرون خلفهم،

سير الجنديِّ الواثق بحكمة قائده،

ولكن في الحقيقة ما هؤلاء إلا أتباع أتانٍ أرضعتهم، وصنعتهم على عينها،

ثم أخرجتهم لنا بصورة الأبطال وليس لهم من مظاهر القيادة إلا الأجراس المعلقة في رقابهم!

يا صاحبي،

ليس المهم أن يكون المرءُ في المقدمة،

المهم أن يكون على الطريق!

وأن يكون المرءُ ذَنَباً في الحق،

خير له من أن يكون رأساً في الباطل!

أبو جهلٍ كان رأساً في قومه،

ولكنه رأس أعوج!

وقارون كان فاحش الثراء،

ولكنها ثروة مسخرة للفساد والإفساد!

وفرعونُ يقدمُ يوم القيامة يقود أتباعه إلى النار!

الوجهة أولا يا صاحبي،
الوجهة أهم من السرعة!

القافلة التي تسير إلى اللّٰه وإن ببطءٍ، ستصل نهاية المطاف!
وإن لم تصل فلا بأس،
فإن الموت في الطريق إلى اللّٰه وصول!
أما القافلة التي تسير بعيداً عنه سبحانه،
لن تنفعها سرعتها فهي كلما سارت ابتعدتْ أكثر!

يا صاحبي،
صحِحْ وجهتكَ أولاً ثم ليكن بعدها المسير!

والسلام لقلبكَ

101

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

كان الأعرابيُّ يأتي من البادية،

فيدخل على النبيِّ ﷺ وهو جالس بين أصحابه،

فيقول: أيكم محمد؟!

يا للتواضع يا صاحبي!

لا كرسيَّ مرتفع يجلسُ عليه،

لا ملابس فخمة تميزه عن أصحابه،

يجلس على الأرض كالبقية، ويلبسُ كالجميع!

ولا يُعرف أنه هو إلا إذا أُشير إليه،

متخيِّلٌ أنتَ هذه الروعة في هذا المشهد البسيط؟!

متخيِّلٌ أنتَ أنَّ هذا الجالس على التراب كان يوماً في السماء السابعة؟!

متخيِّلٌ أنتَ هذا الجالس في غمار الناس ستأتيه البشرية كلها يوم القيامة تسأله أن يستفتح لها باب الجنة؟!

متخيِّلٌ أنتَ أن هذا الذي جثا يوماً على ركبتيه يواسي صبياً مات عصفوره،

هو أول من ينشقُّ عنه القبر يوم القيامة؟!

متخيِّلٌ أنتَ آن هذا الذي كان يرقع ثوبه، ويخيطُ نعله، ويحلبُ شاته،

هو الذي صلى بالأنبياء إماماً يوم أُسريَ به واستلمَ قيادة البشرية كلها؟!

متخيِّلٌ أنتَ أن هذا الذي كان يُسابقُ زوجته في الصحراء فتسبقه مرةً، ويسبقها مرة،

هو الذي جاءه ملكَ الجبال ينتصرُ له يوم رُجم في الطائف؟!

الكبار يتواضعون يا صاحبي، والصغار يتعاظمون!

وما تكبَّر أحدٌ إلا لمهانة يجدها في نفسه!

يا صاحبي،

كان حكيم بن حِزام من أشراف قُريش،

وكان يطلبُ العلم عند معاذ بن جبل،

رغم أنه أكبرُ من معاذٍ بخمسين سنة!

فقيل له: أنتَ تتعلمُ على يد هذا الغلام،

فقال: إنما أهلكَ الناسَ الكِبر!

واللهِ أهلكَ الناسَ الكِبرُ يا صاحبي!

أن يجمع أحدهم مالاً، فيمشي في الناس مشية قارون في كنوزه!

وأن يحصل أحدهم على شهادة، فيمشي في الناس كأنَّ عنده علم الأولين والآخرين!

وأن يتقلَّد أحدهم منصباً، فيمشي في الناس كأنَّ بيده مقاليد الدنيا كلها!

وأن يشتهر أحدهم في أحد مواقع التواصل، فيمشي في الناس كأنه فاتح القسطنطينية!

يا صاحبي الغنى مع الكبر فقر،

والشَّهادة مع الكبر جهل،

والمنصب مع الكِبر وضاعة،

والشهرة مع الكبر انحطاط،

فلا تُصاحِبْ متكبراً ولو أدناكَ!

ولا تزهد بمتواضعٍ ولو جافاكَ!

والسلام لقلبكَ

102

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

وقفتُ البارحة وقتاً طويلاً أتأملُ في
قول الإمام مالكٍ لتلميذه القعنبي:
مهما تلاعبتَ بشيءٍ فلا تلعبَنَّ بدينك!

يا صاحبي،
دينُكَ عظمْكَ ولحمُكَ ودمُكَ،
فلا تُفرِّط به فإنك إن فعلتَ.
لن يبقى لكَ شيءٌ منك!
ولستُ أعني المعاصي فكلنا له معصية،
وكذلكَ لم يعنِها مالكٌ من قبل،
دينُكَ هو عقيدتكَ!
أن تبقيها سليمةً من كُلِّ لوثة،
من شركٍ خفيٍّ يطلبُ الثناء عند الناس،
ومن تصفيقٍ لطاغية تطلبُ عنده عزَّ الدنيا،
تشتريها بدل الآخرة!
ومن اصطفافٍ مع القوة، وترك خندق الحق!

يا صاحبي،
هذا شأن العبيد دوماً،

مع الذي بيده السوط لا مع الذي بيده الحق!
يا صاحبي،
إن المعاصي قد وقع فيها الصحابة،
ولم ينجُ منها إلا الأنبياء بعصمة اللّه!
أما عقائدهم فكانت راسخة رسوخ الجبال!

كان على عهد النبيِّ ﷺ رجل اسمه عبد اللّه،
كان خفيف الدم حُلو الدعابة،
يُضحِكُ النبيَّ ﷺ إذا التقى به.
وكان عبد اللّه مبتلىً بشرب الخمر.
فجلده النبيُّ ﷺ حدّاً،
فشربها مرةً أخرى فأمر بجلده،
وفي الثالثة قال رجل من المسلمين:
اللهمَّ اِلْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤتى به!
فقال النبيُّ ﷺ: لا تلعنوه!
واللّهِ ما علمتُ إلا أنه يُحِبُّ اللّه ورسوله!
وقد زنى ماعِزٌ رضيَ اللّه عنه أيضاً،
وكان أبو محجنٌ في القيد يوم القادسية لأنه شرب الخمر.
أما العقيدة فلم تدخلها لوثة!
لستُ أقول أنه لا بأس بالمعاصي،
وإنما أقول أنه لا فكاك منها،
ولأن الأمر كذلك فتح اللّه سبحانه باب التوبة على مصراعيه
لا يُغلقه أبداً..

إلى أن تطلع الشمس من مغربها

ولكني أقول أن ذنب المسلم يكسره ويؤدبه،

وأحياناً معصية تكسرك وتقربك إلى ربك،

أفضل من طاعةٍ تملأك عُجباً!

معصية المسلم النادم بينه وبين ربه،

وما كان بين العبد وربه فأمره يسير،

لا لصغر المعصية وإنما لعظمة رحمة الله،

أما العقائد فإن فسدت فلا يصلحها العمل مهما كان كثيراً،

فلا تلعبنَّ بدينك!

والسلام لقلبكَ

103

السَّلامُ عليك يا صاحبي،

قـرأتُ البارحـة شـيئاً لابـن سـعدٍ فـي الطبقـات هزَّنـي عميقـاً، عميقـاً جـداً!

يحدثُ أن يقرأ المرءُ شيئاً فيستشعر معه ضآلة نفسه!

ثمة أشخاص سبقونا كثيراً بقلوبهم!

وحتى لا أطيل عليكَ وأتركك معلقاً على حبال اللهفة،

أقولُ لكَ:

روى ابن سعدٍ أن النبيَّ ﷺ حين قَدِمَ المدينة،

نزل في بيت أبي أيوب الأنصاري سنةً أو نحوها،

فلما تزوج عليٌّ فاطمة قال له النبي ﷺ:

اُطلبْ منزلاً!

فطلبَ عليٌّ منزلاً،

فأصابه بعيداً عن النبي ﷺ قليلاً،

فجاء النبيُّ ﷺ إلى فاطمة وقال:

إني أريدُ أن أحوِّلكِ إليَّ!

فقالتْ: كلِّمْ حارثة بن النعمان أن يتحوَّل،

وكان منزل حارثة قريباً من بيت أبي أيوب!

فقال لها النبيُّ ﷺ:

قد تحوَّل حارثة عنَّا حتى استحييتُ منه،

فبلغَ ذلكَ حارثة فجاء إلى النبيِّ ﷺ وقال له:

بلغني يا رسول الله أنك تريدُ أن تُحوِّل فاطمة إليك،
وهذه منازلي هي أقرب بيوت بني النجار إليك،
وإنما أنا ومالي للهِ ورسوله،
والمال الذي تأخذه مني أحبُّ إليَّ من المال الذي تدع!
فدعا له النبيُّ ﷺ بالخير!
ثم حوّل فاطمة من بيتها القديم إلى بيت حارثة بجواره!

تخيَّلْ هذا الحُب يا صاحبي،
أن تنأى الديار قليلاً بين النبيِّ ﷺ وبين ابنته
وليس غير بيتك يُقرِّب الحبيبين،
فتأتيه وتقول له: كُلّي لكَ يا رسول الله!
ليس كلاماً فقط وإنما فعلاً!
تتركُ بيتكَ لابنته لأنك علمتَ حبه لقربها،
يا الله!
شيء لو لم تثبته كتب السيرة لقلنا هذا ضربٌ من ضروب الخيال!

يا صاحبي،
قلتُ لكَ مرةً وقد جمعنا حديث وجهاً لوجه:
ليست النُّبوة وحدها اصطفاءً،
الصحبه اصطفاء أيضاً،
إنَّ الذي اصطفى نبيه من دون الناس،
اصطفى له أصحابه من دون الناس أيضاً!

فتأمل يوم الهجرة وأبو بكر يناول النبيَّ ﷺ قدح اللبن ليشرب،
ثم يقول: فشربَ النبيُّ حتى رضيتُ!
تخيل هذا الحُب ما أعظمه!
أن يشربَ النبيُّ ﷺ فيرتوي أبو بكر!
ويا ليوم بدر أول عهد الإسلام بالسيف،
كيف تجلى فيه الحُب،
فالحب يا صاحبي مواقف!

«اشيروا عليَّ أيها الناس»، يرددها النبيُّ ﷺ
فيتكلم أبو بكر بخير، وعمر بخير،
ولكن النبي ﷺ ما زال يرددها:
«اشيروا عليَّ أيها الناس!»
فيعرف سعد بن معاذ بفطنته أنه يريدُ الأنصار!
فقام فقال له: كأنك تُريدنا يا رسول الله؟!
فقال له: نعم!
فقال له سعد: يا رسول الله ﷺ ، هذه أموالنا بين يديك،
خُذْ منها ما شئتَ، ودعْ منها ما شئتَ،
وما أخذته منها كان أحب إلينا مما تركته،
ولو استعرضتَ بنا البحر لخضناه معكَ ما تخلَّفَ منا أحد!
إنّا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ عند اللقاء،
فامضِ بنا حيث أمرك الله!

يا لسعدٍ يا صاحبي، يا لسعدٍ!

فكأنه يقول له: كلنا فداك ورهن أمرك،

نحن سهام في قوسك، فارمِ بنا حيث شئتَ!

أرأيتَ مثل هذا الحُب يا صاحبي؟!

فإن كنتَ رأيتَ، فإني واللهِ ما رأيت!

ثم كانت غزوة أُحدٍ يا صاحبي،

وانكفأ المسلمون بعد تقدمهم بسبب نزول الرماة عن الجبل،

وفي هذا الموقف العصيب أقام الصحابة بأجسادهم سياجاً حول النبيِّ ﷺ،

وقام أبو طلحة أمامه يحميه بصدره ويقول له:

نحري دون نحركَ يا رسول الله!

يا للحُب يا أبا طلحة!

مستعد أن تموت ولا يُصاب حبيبك بشوكة!

وبعد أن أُصيب النبيُّ ﷺ بالجراح،

وثقل عليه الصعود إلى صخرةٍ بسبب نزفه ودرعين كان يلبسهما،

جاء طلحة بن عبيد الله وأحنى ظهره ليصعد عليه النبي ﷺ

فلما صعد عليه قال له: أوجبَ طلحةَ!

لم يكونوا دروعاً فحسب،

وإنما كانوا سلالم ليرقى عليها حبيبهم،

فهل سمعتَ بشيءٍ كهذا في التاريخ؟!

فإني والله لم أسمع!

يا صاحبي،

كانوا من فرط الحُب لا يطيقون فراقه،

فهذا ثوبان يسأله النبيُّ ﷺ:

يا ثوبان ما غيَّر لونك؟

فيقول: يا رسول الله، ليس بي مرض ولا وجع،

غير أني إذا لم أرك أستوحشُ وحشةً شديدة حتى ألقاكَ!

ثم ذكرتُ الآخرة، فخفتُ أني لا أراك،

لأنك تُرفع مع النبيين،

وإني إن دخلتُ الجنة ففي منزلةٍ أدنى من منزلتك،

وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً!

أسمعتَ بشوقٍ لحبيبٍ يُغيِّرُ لون وجه المشتاق يا صاحبي؟!

فإني واللهِ ما سمعتُ!

يا صاحبي،

هل أتاكَ حديث امرأةٍ من بني دينار،

أُصيبَ زوجها وأخوها وأبوها يوم أُحد،

فلما نعوهم إليها قالت: ما فعلَ رسول الله؟

قالوا: هو بخير!

فقالتْ: أَرونِيه حتى أنظر إليه!

فلما رأته قالت له: كل مصيبةٍ بعدك جلل/ صغيرة يا رسول الله!

يا للحُبِّ يا صاحبي، يا للحُب!

امرأة مكلومة بفقد زوجها وابنها وأبيها!

تسأل: ما فعلَ رسول اللّه؟

كانت كل الدنيا تهون عندهم ما دام هو بخير!

والسلام لقلبكَ

104

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

أرادَ السلطان سليمان القانوني أن يهدم إحدى السرايا القديمة،
ويقيم واحدة جديدة مكانها،
فسأل عن أمهر مهندسٍ في البلاد،
فقالوا له: ليس لكَ إلا المهندس معمار سنان!
وبالفعل أرسل السلطان في طلب معمار،
وأخبره بما يريدُ منه أن يفعل بالضبط،
وقبل معمار سنان هذه المهمة ومضى في تنفيذها،
إلى هنا يبدو كل شيءٍ عادياً ومألوفاً!
ولكن ما هو غير عادي أن السلطان كان يُتابع كل صغيرة وكبيرة،
وقد لفتَ نظره أن معمار سنان عندما بدأ بهدم السرايا،
استخدم لها عمالاً غير الذين استخدمهم
حين بدأ ببناء السرايا الجديدة!
فأرسل في طلبه وقال له:
يا سيد معمار عندما كنت تهدم السرايا استخدمت عمالاً،
ثم استبدلتهم في البناء، لِمَ فعلتَ ذلك؟
فقال له معمار سنان: يا جلالة السلطان،
من يصلح للتدمير لا يصلح للبناء!

تأملها بعمقٍ يا صاحبي،
من يصلحُ للتدمير لا يصلحُ للبناء!
خذها قاعدة يا فتى!
من جرحكَ ليس هو الذي سيداويك،
لا تبحث عن دوائك حيث كان داؤك!
خُذْ جرحكَ إلى مكان قصيٍّ بعيدًا عنه،
والذي أنزل لكَ دمعتكَ،
ليس هو الذي سيمسحها عن خدك!
اليد التي تصفعُ ليس هي التي تحضن!
والذي كسر خاطرك،
ليس هو الذي سيجبره،
كُفَّ عن إعطاء الناس فرصاً إضافية!
من النضج أن تصل إلى قناعة أنه لا خير يُرجى من بعضهم!

يا صاحبي،
لستُ أدعوك لأن تكون قاسياً،
تعرفُ جيداً أني أُحبُّ اللين والليّنين!
وأنه يأسرني المتسامحون الذين يعضّون على جراحهم ويغفرون!
كل ما في الأمر أني لا أريدك أن تكون ألعوبة بيد أحدهم،
ولا أضحوكة في فم يتذكر طيبتك،
فيحسبها سذاجة ويبتسم!
ما أريدكَ أن تفهمه،

أنَّ من أمِنَ الفِراق أساء الوصل،
وأن الذي يسيءُ إليكَ لأنه ضامن بقاءكَ،
عليكَ أن تشعره أن بإمكانك أن ترحل!

يا صاحبي،
كلنا نُخطئ ونسيء!
ونحن بحاجة إلى أن نغفر للآخرين أخطاءهم،
لنجد من يغفر لنا حين نُخطئ،
ولكن شتان بين خطأ عابر،
يتبعه بعد ذلك اعتذار وجبر وطبطبة،
وأن تصرفاً قبيحاً واحداً،
يجب أن لا يضيع في بحر كبير من تصرفاتٍ جيدة!
ما أردتُ قوله أن تحذر السيء على الدوام،
ذاك الذي يجرحك كل مرة،
ويختار أن يكسب الموقف ولو على حساب خاطرك،
ذاك الذي يؤمن في قرارة نفسه،
أنك ستعود إليه بعد أن تداوي جرحكَ،
وترمم كسركَ!
هذا عليكَ أن لا تدير ظهركَ له كل مرةٍ ريثما تهدأ،
وتعود إليه ليعاود هو مرةً أخرى،
هذا عليكَ أن تستدير مرةً وتنظر في وجهه،
وتقول له: لقد اكتفيتُ!

والسلام لقلبكَ

105

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

تسألني: كيف أشعرُ بالسعادة؟
فأقول لكَ: أُجيبكَ، أم أروي لك قصةً أولاً؟!
وأنا أعرفُ مسبقاً حبَّكَ للقصص،
ولم تُخيِّبْ معرفتي بك،
إذ تقول لي: اِروِ لي قصةً أولاً!

حسناً يا صاحبي إليكَ القصة التي ستوفر عليَّ عناء الإجابة،
على سؤال يبدو شائكاً وفضفاضاً!
في لقاء على الهواء مباشرة،
سأل المذيع ضيفه الثري:
ما أكثر شيءٍ أسعدكَ في حياتك!
فقال الثريُّ للمذيع:
مررتُ بأربع مراحل للسعادة في حياتي حتى عرفتها،
في المرحلة الأولى كنتُ أعتقدُ أن السعادة
تكمنُ في اقتناء الأشياء،
فلم أترك لوحةً غالية الثمن إلا اشتريتها!
واقتنيتُ أفخر السيارات،
واشتريتُ أجمل البيوت،
ولكن المفاجأة كانت أني لم أعرف السعادة!

في المرحلة الثانية اعتقدتُ أن السعادة
تكمنُ في أن أكون وجهاً من وجوه المجتمع،
أقمتُ الحفلات، وشاركتُ في الفعاليات،
كتبتْ عني الصحف، وتحدث عني الناس،
ولكني لم أجد طعم السعادة!

في المرحلة الثالثة اعتقدتُ أن السعادة
تكمن في امتلاك مشاريع كبيرة،
اشتريتُ فريقاً لكرة القدم في المدينة،
واشتريتُ أكبر منتجعٍ سياحي في البلد،
ولكني لم أجد طعم السعادة أيضاً!

في المرحلة الرابعة وجدتُ السعادة
ولكن عن طريق الصدفة!
طلبَ مني صديق أن أساهم بشراء
كراسٍ متحركة لمجموعة من الأطفال المشلولين،
وبالفعل سارعتُ لدفع المبلغ الذي طلبه،
ولكن صديقي جاءني بعد فترة
وطلب مني أن أذهب معه
لتسليم هذه الكراسي للأطفال بنفسي،
استجبتُ لطلبه وكم كانت سعادتي كبيرةً
عندما رأيتُ الفرحة على وجوه الأطفال،
وكنتُ أحسبُ أن الأمر قد انتهى هنا!

ولكني حين أردتُ مغادرة المكان،

أمسكَ طفل مقعد بيدي ونظر إليَّ وابتسامة عريضة على فمه،

قلتُ له: هل لكَ حاجة فأقضيها لكَ؟

فقال لي: لا

ولكني أريدُ أن أحفظ وجهكَ،

حتى أعرفكَ في الجنة وأشكرك مرةً أخرى أمام الله!

عدتُ يومها من هناك بشيءٍ ثمينٍ جداً،

عدتُ بطعم السعادة!

السعادة في العطاء يا صاحبي،

في خاطر مكسور تجبره، فتشعر أن خاطرك هو الذي جُبر!

وفي دمعة تمسحها عند خد محزون، فتشعر أن دمعتكَ هي التي مُسحتْ!

وعن صدقةٍ تضعها في يد فقير، فتشعر أنك الذي أخذتَ المال لا الذي أعطيت!

في مسكين تنصره في موقف ضعف، فتشعر أن النصر نصرك!

وفي إصلاح ذات بين، فتشعر أنكَ قد عُدتَ إلى نفسك بعد فراق!

السعادة بيد الله يا صاحبي فلا تطلبها بعيداً عنه!

والسلام لقلبكَ

106

السَّلام عليكَ يا صاحبي،

يُعجبني قول عمر بن الخطاب:
«لستُ بالخِبِّ ولا الخِبُّ يخدعني!»
أو بالأحرى شخصية عمر بن الخطاب كلها تُعجبني،
كان يشتدُّ في مواضع الشِّدة،
حتى يكاد من يراه يقول: هذا الرجل لا يلينُ أبداً!
ويلينُ في مواضع اللين،
حتى يكاد من يراه يقول: هذا الرجل لا يشتدُّ أبداً!
وكان يلتفتُ لكل تفصيل،
حتى يكاد من يراه يقول: هذا الرجل لا يفوته شيء!
وإذا أراد أن يتغافل صوناً لودٍّ
مرَّرَ الأمر كأنه لا يرى ولا يسمع!
وهنا تكمن العبقرية يا صاحبي!
أن تضع كل شيءٍ في نِصابه،
الحزم حيث يجب،
والرأفة حيث تجب،
لأن وضع أحدهما موضع الآخر مهلكة!
وأن تُحاسب حيث يجب،
وتسمحُ حيث يجب،
فوضع أحدهما موضع الآخر مهلكة أيضاً!

خلاصة الأمر يا صاحبي،

أن تكون كما يقتضي الموقف أن تكون لا أقل ولا أكثر،

أن تضع العقل موضعه، والقلب موضعه،

والسوط موضعه، واليد موضعها،

لا تقُلْ لا في موضع نعم أبداً!

ولا تقُلْ نعم في موضع لا أبداً!

ولا تضع فاصلة حيث يجب أن تضع نقطة!

ولا تُغلق الباب نهائياً!

إن كان من الحكمة أن تتركه مواربا!

كُن طيباً دون سذاجة،

الطيب الحازم يُحترم،

أما الطيب الساذج فيُستهان به!

وكُن كريماً وأنت قادر على المنع،

الناس استغلاليون في مواقف كثيرة!

يا صاحبي،

كل هذا يُسمى الحِكمة

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

والسلام لقلبكَ

107

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

تُراجعني في قول قلته لك سابقاً:
«إنَّ لكل ذنبٍ عقوبة!»
فتقول لي: ولكننا نعصي ولا نجد العقوبة،
فكيف تجزم أنَّ لكل معصيةٍ عقوبة؟!

فأقول لكَ: يا صاحبي،
لا تُعمم قولي على كل معصيةٍ!
اللّٰه رحيم، وما كان لي أن أتألى عليه سبحانه،
فأجزمُ أن كل عاصٍ سيُعاقب،
فكلنا نهاية المطاف عُصاة يا صاحبي،
ولكنكَ فهمتني خطأً!
أو لعلني أخطأتُ إذ لم أتوسع لكَ في الأمر،
فتركته لكَ مجملاً دون تفصيل!
فأركنتُكَ إلى عقلكَ تتلاطمه الأفكار يمنةً ويسرةً!

يا صاحبي،
لستُ أعني بالعقوبة
أن تنزل على كل عاصٍ صاعقة من السماء!

هناك عقوبة أشد وهي أن يصرف الله تعالى قلبَ عبده العاصي عنه!

يا صاحبي،

ليست كل عقوبة هي بالضرورة

كعقوبة فرعون في إطباق البحر عليه،

ولا كعقوبة قارون في الخسف،

ولا كعقوبة النمرود في بعوضة!

هذا يُسمى انتقام الجبار!

أما العقوبات فتلك لها وجه آخر!

أن يموت قلبُكَ وأنت حي،

أن تمرَّ بالجنازة فلا تهتز،

ومن لم يعظه الموت فلن تعظه الجبال،

ولو تناطحتْ بين يديه!

وأن تسمع الآية من القرآن فلا يتحرك فيك شعرة،

وهو الذي أُنزل على جبل فخشع وتصدع!

أيوجد عقوبة أكبر من هذه؟!

أن تكون الصخور ألين من قلبك!

ولله در ابن القيم حين قال:

ما ضُربَ عبدٌ بعقوبةٍ أكبر من قسوة القلب!

يا صاحبي،

أية عقوبة أقسى من أن تمرَّ الليالي الطوال وليس لك فيها ركعتي قيام؟!

وأن تسمع المؤذن يُنادي حيَّ على الصلاة،

ولا يقيمك قلبُكَ إلى المسجد؟!

وأن يمرَّ رمضان ولم تحسن استغلاله،

وأن تنهض إلى الصلاة بتثاقل كمن يريدُ أن يزيح صخرةً عن كاهله؟!

أية عقوبة أقسى من أن لا يجد المرء في صلاته قول نبيه:

أرحنا بها يا بلال!

يا صاحبي،

أية عقوبة أقسى من أن تنشغل بالتوافه من الناس والأمور،

جدال عقيم هنا تخوضه كأنه حرب فاصلة!

ومشهور تافه تتابعه لحظة بلحظةٍ، كأنما أوتي علم الأولين والآخرين!

أية عقوبة أقسى من جفاف الدمع،

وكسل الأيدي عن الارتفاع بالدعاء،

وملل اللسان من اللهج بالذكر؟!

يا صاحبي،

ليست كل العقوبات صواعق

إغلاق الباب في الوجه أقسى، أقسى بكثير!

والسلام لقلبكَ

108

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

في أيام الرِّق في أمريكا قديماً،
كان العبيد ينقسمون إلى قسمين:
عبيد المنازل وعبيد الحقول!
عبيد الحقول كانوا يُعاملون كالدواب،
مجرد مخلوقات للحراثة، والبِذار،
وقطف المحاصيل بلا أي حقوق، ولا احترام،
بلا إجازات، ولا أيام عطلة، ولا استشفاء!
بل ويُجلدون بالسياط عند أول تقصير،
وربما قطع السيد إصبعاً من أصابعهم،
لأن المحصول لم يكن وافراً كما تمنى!
أما عبيد المنازل فكانوا يعتبرون أنفسهم من طبقة العبيد المرفهة!
يأكلون بقايا طعام أسيادهم،
ويلبسون ثيابهم القديمة،
ويخدمون في البيوت،
وينظرون إلى عبيد الحقول على أنهم أقل منزلةً منهم!
وكلما اجتمعَ عبيد الحقول لتحرير أنفسهم،
كان عبيد المنازل ينقلون أخبارهم إلى أسيادهم،
الذين يسارعون في إنزال أشد العقوبات بهم!

يا صاحبي،

لو تأملتَ هذا المشهد،

لوقفتَ على الحقائق التالية:

- أول من يقف في وجه ثورة العبيد ليس السادة،

وإنما العبيد الذين يعتبرون أن امتيازاتهم مرهونة ببقاء السادة!

- بعض العبيد يعتبرون أنهم ليسوا مربوطين،

لمجرد أن الحبل الذي رُبطوا به أطول مما رُبط به غيرهم!

- إذا قضى الإنسان زمناً طويلاً في العبودية،

فإنه يستمرئ هذه العبودية، ويقنع بها، ويعتبر أن كل مُطالبٍ بالحرية هو خائن!

- البعض يكرهون من يحاول أن يتحرر،

لأنهم في قرارة أنفسهم عاجزين عن أن يكونوا أحراراً،

لقد ألفوا أن يكونوا تابعين، والحرية تلغي هذه التبعية،

والذي قضى في القيد سنوات طويلة تفسدُ فطرته تجاه الحرية،

لهذا هم لا يقفون مع السيد لأنه سيد،

ولا ضد العبيد لأنهم عبيد، كل ما في الأمر أنهم يخافون من المسؤولية!

ثم إنك يا صاحبي لو تأملتَ حالنا اليوم،

لوجدتَ أننا نعيش شيئاً من ثنائية عبيد الحقول وعبيد المنازل!

إذا طالبتَ بوظيفة، واشتكيتَ من البطالة،

ليس السيد هو من يرد عليك وإنما عبيد المنازل!
الذين يتهمونك بأنك تكره وطنك،
وإذا طالبتَ بالعدالة الاجتماعية اتهموكَ بأنك تسعى إلى الفتنة!
وإذا سألتَ عن مسجونٍ لِمَ سُجن،
اتهموكَ بأنك مدعوم من الخارج!
حتى إذا حملتَ سلاحكَ في بلدٍ آخر في وجه محتل،
اتهموك في وطنيتك رغم أنك بعيد عنهم!
والسبب أنك ضربتَ على وتر عبوديتهم!
اللص يكره الأمين لأنه يذكره بنقصه،
والعاصي يكره الطائع لأنه يضعه في مواجهة مع نفسه،
فيشعر بصغره!
كل حر يثور في أي بقعة في العالم،
يعاديه كل عبيد المنازل في أي بقعة في العالم!
بعضهم لا يعرف إلا أن يكون ذيلاً تابعاً، ومنقاداً ذليلاً!

والسلام لقلبكَ

109

السَّـلامُ عليكَ يا صاحبي،

قرأتُ البارحة قصةً جميلة حدثت في العراق في العام 1956،
حيـث افتقـد الأسـتاذ الجامعـي تلميـذه العبقـري فـي مرحلـة الدكتـوراة،
فقرر أن يذهب إلى بيته ليزوره فقد اعتقد أنه مريض،
وأنه ليس غير المرض قد منعه عن الحضور إلى الجامعة!
وعندما وصل إلى بيت تلميذه،
وجد أن البيت كله عبارة عن غرفة واحدة متصدعة،
وأن الطالب فقير جداً بشكل لم يكن يتصوره،
وبعد أن قدَّم التلميذ كوب الشاي لأستاذه،
قال له الأستاذ: لماذا لم تعد تحضر إلى الجامعة؟
فقال له التلميذ: العلمُ لا يشتري باقة فجل!
دُهش الأستاذ من كلام تلميذه،
وقبل أن يسأله عن سبب قوله هذا،
سارع التلميذ وقال:
يا أستاذي العزيز لقد شعرتُ بالجوع منذ أسبوع،
ولم يكن معي إلا فلساً ونصف،
اشتريتُ رغيفاً بفلس من الفرن،
وتوجهتُ إلى بائع الخضـار أريـد أن أشتري فجـلاً بنصـف الفلس المتبقي،

فقال لي: باقة الفجل بفلس!

فقلتُ له: بإمكاني أن أُعلمكَ مسألةً في النحو أو أروي لكَ قصةً في الأدب،

مقابل أن تبيعني باقة الفجل بنصف فلس!

فقال لي ساخراً: علمكَ لا يشتري الفجل!

فعلمتُ أنه على حق،

وقررتُ أن أترك الدراسة،

وأحصل على عمل يمكنني من شراء الخبز والفجل!

لم يُعلق الأستاذ على كلام تلميذه،

وإنما أعطاه خاتماً ذهبياً، وقال له: بِعْ هذا لي!

وتعالَ غداً إلى الجامعة وسنتحدث، وقام وانصرف!

وبالفعل في اليوم التالي جاء التلميذ ومعه ثمن الخاتم،

فقال له الأستاذ: هذا سعر ممتاز أين بعتَ الخاتم؟!

فقال له: لقد بعته في سوق الصاغة.

فقال له الأستاذ: ولِمَ لمْ تبعه لبائع الفجل؟!

فقال له: بائع الفجل لا يعرف قيمة الذهب!

فقال له الأستاذ: وكذلك هو لا يعرف قيمة العِلم!

المشكلة يا عزيزي ليس أنَّ علمكَ ليس له قيمة،

وإنما قد بذلته لمن لا يُقدِّره!

يا صاحبي،

قصة التلميذ وبائع الفجل تتكرر كثيراً،

أحياناً لا نلقى صدىً لما نفعله،

ليس لأن الذي نفعله لا قيمة له،
بل لأننا نفعله مع من لا يُقدِّره!
إذا قدمتَ الحُبَّ ولم تجنِ إلا الشوك،
فهذا لا يعني أن الحُب ليس له قيمة،
وإنما يعني أنك قدمته إلى الشخص الخطأ!
وإذا صنعتَ معروفاً مع إنسانٍ وقابله بالإساءة،
فهذا لا يعني أن المعروف لا يُثمر في الناس،
وإنما يعني أن بعض الناس فقط ليسوا أهلاً للمعروف!

يا صاحبي،
اُنظُر أين تضع نفسك أولاً،
ثم اسأل عن نتائج ما تفعل!
ربما وردة واحدة في حديقة شاسعة،
لن تضيف إلى هذه الحديقة كثيراً!
ولكن متى قطفها عاشقٌ وأعطاها لحبيبته،
صارتْ هذه الوردة عندها أجمل من كل باقات ورد العالم!
القضية كلها ليست كيف وإنما أين؟
ليست متى وإنما مع من!

والسلام لقلبكَ

110

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

كنتُ أقرأ البارحة في إلياذة هوميروس،
التي ترجمها ممدوح عدوان إلى اللغة العربية،
واستوقفني مقطع أحببتُ أن أشاركك إياه،
يقول هوميروس في الإلياذة:
«تذكر يا بُني أن يكون عقلك مشبعاً،
بكل مصدرٍ للمهارة والبراعة كي لا تفوتك الجوائز!
إنَّ قاطع الأشجار أبرع بكثير في عمله،
ممن هو في القوة ذاتها ولا خبرة له بقطع الأشجار!
وبالمهارة يسيطر الرُّبان على سفينته السريعة،
رغم أن الرياح تُصادمه!
وبالمهارة يتفوق سائق عربةٍ على آخر،
ومن يضع ثقته كلها في خيوله وعربته دون أن يتحكم بها،
ما يلبثُ أن يفقد السيطرة وتنقلبُ به عربته!
ولكن الرجل الذي يعرف كيف يستغل الفرصة،
حتى ولو كان يقود خيولاً أبطأ،
فإنه يصل نهاية المطاف!»

لعلك لاحظتَ يا صاحبي ما لاحظته أنا
لقد عرف الناس منذ القدم أهمية الخبرة،

وأن امتلاك القوة شيء،
وامتلاك إدارة القوة شيء آخر،
لا يكفي أن تكون قادراً على فعل شيء لتفعله،
لا بدَّ أن تمتلك الخبرة!
بعض الأشياء لا تحتاج إلى قوة أساساً،
الذين يُربُّون المحار لإنتاج اللؤلؤ،
لا يفعلون شيئاً أكثر من ثقب المحارة برأس دبوس،
وإدخال حبة رمل واحدة إلى داخلها،
فتقوم هي بالالتفاف عليها وتصنعُ منها لؤلؤة!
صبيٌّ صغير يمكنه أن يثقب محارة،
ولكن المسألة ليست مسألة ثقب،
وإنما أن تعرف أين وكيف وكم تثقب،
وهذا ما يُسمى الخبرة!

ذكرني حديثي هذا معكَ،
بقصة سبق ورويتها لكَ ذات حديثٍ جمعنا وجهاً لوجهٍ،
لا أعرفُ إن كنتَ تذكرها الآن!
حدثتك يومها عن ناقلة نفطٍ عملاقة تعطلتْ في عرض البحر،
فأحضرت الشركة المالكة للناقلة أمهر المهندسين ولكن دون جدوى!
فقط بقيت الناقلة معطلة وجاثمة دون حراك!
إلى حين جاء مَن نصح الشركة بميكانيكي عجوز،
لديه خبره شاسعة في هذا النوع من الناقلات!

اتصلت الشركة بالميكانيكي العجوز الذي حضر على جناح السرعة،

دخل إلى غرفة المحركات وأخذ يتحسس بيده محركها الضخم،

ثم عاد إلى شنطة عدته وأخرج منها مطرقة،

وطرق طرقة واحدة، ثم أمر القبطان أن يدير الناقلة!

وكم كانت الدهشة عظيمة عندما اشتغلت ناقلة النفط العملاقة !

سألوا الميكانيكي العجوز عن المبلغ الذي يريده نظير إصلاح الناقلة،

فطلب عشرة آلاف دولار!

رأى المحاسب أن هذا مبلغاً كبيراً،

إذ أن الميكانيكي لم يطرق إلا طرقة واحدة بمطرقته !

فطلبَ منه أن يكتب بالتفصيل فاتورةً تشرح سبب إصراره على هذا المبلغ،

فكتب الميكانيكي العجوز في الفاتورة:

دولار واحد أُجرة الطرقة،

و9999 دولار أُجرة أن تعرف أن تطرق!

إنها الخبرة يا صاحبي!

والسلام لقلبكَ

111

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

كان زينوفون أحد تلاميذ سقراط،
ولكنه مع حبه للعلم والمعرفة كان شغوفاً بالحرب،
وكان تقريباً رجلاً بلا مبدأ!
يُحارب في صف من يدفع له أكثر،
وربما قاتل اليوم في صف من كان يُقاتله البارحة،
كان ولاؤه للمال فقط!
ولكنه مع هذا حافظ على رجل المعرفة بداخله،
وكتب كتابه الشهير أناباسيس،
الذي دوَّن فيه أحداث اشتراكه في الحرب مع قورش الأصغر،
ضد أخيه أردشير الثاني!

لم يكن الكتاب مجرد تأريخ جامد للحرب،
وإنما ضمّنه شيئاً من الفلسفة والأدب،
وبلا طول سيرة كما تقول جدتي -رحمها اللّه-
يقول زينوفون في كتابه:.
«العوائق التي تواجهها ليست الأنهار ولا الجبال ولا المحاربين الآخرين،
العائق الوحيد أمامكَ هو نفسك!
إذا ما شعرتَ بالضياع والارتباك،

وإذا فقدتَ الحس بالاتجاه السليم،
ولم تكن قادراً على التمييز بين الصديق والعدو،
فلا تلومنَّ إلا نفسكَ!
فكِّرْ أنكَ دائماً على أُهبة الدخول في معركة،
كل شيء يعتمدُ على نظرتك إلى هذا العالم،
إنَّ تغييراً في منظورك للأشياء يمكن أن يُحوِّلكَ،
من شخص سلبي ومرتزق إلى مقاتل مبدع!»

تأمل هذه الجملة جيداً يا صاحبي،
كل شيءٍ يعتمدُ على نظرتكَ إلى هذا العالم!

يا صاحبي،
إن موقفنا من قضية ما،
لا يُخبر عن حقيقتها،
وإنما عن حقيقتنا نحن!
فرُبَّ موقف كان لكَ فيه ردة فعل،
ثم مضى بكَ الزمان فلما عشتَ مثله،
صار لكَ ردة فعل أُخرى،
الموقف هو الموقف يا صاحبي!
ولكن أنتَ الذي تغيّرتَ!
فقدت الخنساء في الجاهلية أخاها صخراً،
فبكته ردحاً من الزمن،
حتى أنها كانت تطوف بالكعبة وحذاء صخرة حول عنقها،

كان الموت بالنسبة لها نهاية المطاف!

ولكنها بعد أن أسلمت،

فقدتْ في القادسية أولادها الأربعة،

فحمدت الله، واسترجعتْ، ولم تذرِفْ دمعةً واحدة!

عرفت بالإسلام أن الموت ليس نهاية المطاف،

وإنما بدايته فقط!

الموت هو الموت في الحاليْن،

ولكن الخنساء لم تكن هي الخنساء في الحاليْن،

لقد غيَّرتْ نظرتها إلى العالم،

فتغيَّر العالم في نظرها!

والسلام لقلبكَ

112

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

في التوراة المحرَّفة فعلاً
والتي لا يمكن الركون إليها بأي حالٍ من الأحوال،
هناك قصة عن داود عليه السلام،
ووالد زوجته الملك شاؤول،
حيث شعر داود أن شاؤول يريدُ قتله،
وأسرَّ بهذا الأمر لصديقه الوفي جوناثان،
وجوناثان بالمناسبة هو ابن شاؤول وشقيق زوجة داود،
لم يُصدِّق جوناثان ما قاله داود عن أبيه،
وقال له ربما ليست الأمور بينكما على ما يُرام،
ولكنها لا تصل إلى درجة أنه يريدُ قتلك!

ولكن داود كان متقد الذكاء،
ورمى بالون اختبار كان بمثابة ضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ،
وهو كشف نوايا شاؤول الحقيقية،
وإقناع جوناثان أنه محق وليس واهماً البتة،
بشأن نوايا والده الشريرة تجاهه!
كان شاؤول قد أعدَّ مأدبةً ودعا إليها داود،
فقرر داود أن يعتذر ويرسل عذره إلى شاؤول مع جوناثان،
لم يكن العذر للتغيب مُلحّاً بالطبع،

ولكنه كان عذراً على أية حال!
وقال داود لجوناثان: إن قبلَ أباك العذر،
فهذا يعني أن نواياه حسنة وأنا مخطئ!
وإن لم يقبل العذر،
فسيغضب ويكشف عن مكنونات صدره!
عاد جوناثان إلى القصر وأخبر أباه بعذر داود،
فما كان من شاؤول إلا أن صرخ بأعلى صوته:
أحضروه إليَّ فوراً، إنه يستحقُّ الموت!

يا صاحبي،
من أحبك قَبِل عذرك،
وإن لم يجد لك عذراً اختلقَ لكَ واحداً!
نحن حين نريدُ أن نتمسك بالناس،
نبحث عن أسباب للبقاء!

ومن كرهكَ لن يرضى عنك،
ولو أضأتَ له أصابعك كلها شمعاً،
من أراد فراقك لن تستطيع أن تمسكه،
ولو أوصدتَ بوجهه كل الأبواب،
لفرَّ منك من أحد ثقوبها!

أغلب مواقف الحياة حمالة أوجه،
يمكن أن تُحمل على الخير، ويمكن أن تُحمل على الشر،

المُحب يأخذ الأمر بحسن نية،

والكاره يأخذ الأمر بسوئها،

والأعذار تكشف النوايا!

إنها تُعرِّي لكَ صدور الآخرين،

من أخطأتَ معه فقبل عذرك،

فهذا كان يريدُ أن يبقى ولو لم تعتذر!

ومن لم يقبل عذرك،

فاعلم أنه كان ينتظر هفوتكَ ليرحل!

والسلام لقلبك

113

السَّـلامُ عليكَ يا صاحبي،

كان أبو حفص الأبَّار صديقاً لابن شبرمة،
وكان له عند ابن شبرمة حاجةً فقضاها له،
فجاء أبو حفص يشكره،
فقال له ابن شبرمة: على أي شيءٍ تشكرني؟
فقال له: لقد قضيتَ حاجتي!
فقال له: اِذهبْ، إذا سألتَ صديقكَ حاجةً،
يقدر على قضائها فلم يبذل نفسه وماله،
فتوضأ للصلاة،
وكبِّر عليه أربعاً وعُدَّه في الموتى!

يا صاحبي،
إن الصديق صِنو الروح وقطعة القلب،
فمتى لم يكن المرءُ منكَ بهذه المنزلة،
فلا تدَّعي صداقته. عُدّهُ من المعارف فقط!

الصديق لا يهون وإن هانَ كل الناس،
اختلف أبو بكر وعُمر على شيءٍ،
والنبلاء تقع بينهم الخلافات أيضاً،
وإن كانوا سرعان ما يرممون الفجوة التي حدثت بينهم،
وكان أبو بكر هو المخطئ،

فسارع إلى الاعتذار من عمر بن الخطاب،
ولكن عمر بطبعه الصلب لم تكن نفسه قد صفت بعد،
فلم يقبل اعتذار أبي بكر،
وضاقت الدنيا بأبي بكر،
وكان كلما ضاقت به الدنيا ذهبَ إلى النبيِّ ﷺ
فحدَّثه بالذي كان بينه وبين عمر وكيف رفضَ اعتذاره،
ولكن عمر النبيل سرعان ما راجع نفسه،
وجاء إلى المسجد يبحثُ عن أبي بكر،
ولكنَّ النبيَّ ﷺ لم يمررها هذه المرَّة،
لم يهُنْ عليه صديقه الأثير على قلبه،
فقام خطيباً يُدافع عنه وقال:
يا أيها الناس إنَّ الله بعثني إليكم،
فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقَ!
وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!

فجعل أبو بكر يُخبر النبيَّ ﷺ
أن الحقَّ كان مع عمر،
أيضاً لم يهُن عمر عند أبي بكر،
الصديق لا يهون يا صاحبي!

يا صاحبي،
دار الزمان بالناس اليوم،
فقلّتْ الصداقة وشحَّ الأصدقاء،

قلَّتِ الأكتاف الصالحة للاتكاء،

والقلوب التي تقاسمك الوجع،

والعيون التي إن لم تستطع أن تخفف عنكَ بكتْ معكَ!

ورحمَ اللّه الأعمش حين قال:

أدركتُ أقواماً لا يلقى الرجل صديقه الشهر والشهرين،

فإذا لقيه لم يزدْ عن قوله له:

كيف أنت؟ وكيف حالكَ؟

ولو سأله نصفَ ماله لأعطاه!

ثم أدركتُ آخرين،

إذا لم يلقَ الرجل منهم صديقه يوماً،

سأله عن كل شيءٍ حتى الدجاجة في البيت،

ولو سأله درهماً من ماله ما أعطاه!

نحن في زمن الآخرين يا صاحبي،

والأصدقاء ندرة كالشعرة البيضاء في جسد الثور الأسود،

فإذا عثرتَ على صديق نادر،

فتشبَّثْ به بأسنانك!

فمن لم يكن له صديق نادر،

فقد ماتَ قبل أن يموت!

والسلام لقلبك!

114

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

في محطة المترو في العاصمة الأمريكية واشنطن،
وقف رجلٌ يعزِفُ على آلة الكمان،
عزفَ خمسين دقيقة متواصلة ببراعة،
وفي هذه الخمسين دقيقة مرَّ به أكثر من ألف شخص،
سبعة فقط منهم وقفوا يستمعون لعزفه،
والبعض ألقى إليه بالنقود وأكمل طريقه،
استطاع هذا العازف أن يجمع ثلاثين دولاراً،
ثم أُميط اللثام عن هذا المشهد الغريب،
لم يكن العزف في محطة المترو إلا تجربة قامت بها إحدى الجامعات،
أما العازف فكان «جوشوا بيل»،
أحد أمهر عازفي الكمان في العالم اليوم،
والكمان الذي كان يعزف عليه ثمنه أربعة ملايين دولار!

قبل أسبوع من هذه التجربة،
كان جوشوا يحيي حفلةً في بوسطن،
بيعت فيها كل التذاكر،
وأرخص تذكرة كان سعرها مئة دولار!

أحسبُ يا صاحبي أنك فهمتَ المغزى من التجربة،
أجل، قيمة الإنسان في غير مكانه!
جوشوا بيل الذي جنى قبل أسبوع ملايين الدولارات من حفلته في بوسطن،
لم يجمع إلا ثلاثين دولاراً في محطة مترو،
والشخص الذي حضر حفله الآلاف في المسرح،
لم يستمع إليه إلا سبعة أشخاص في محطة مترو!

يا صاحبي يُهان المرءُ في غير مكانه،
آينشتاين الذي كانت تحلمُ كل جامعات العالم بمحاضرةٍ له،
لو نزل إلى سوق الخضار يُحدّث الناس،
عن النسبية أو عن نظرية النسيج الكوني،
فلن يستمع إليه أحد،
هذا إن لم يعتبره البعض مجنوناً!

ومصطفى محمود رحمه اللّه الذي كان الوطن العربي كله،
يتسمر أمام شاشة التلفاز لمشاهدة برنامج العلم والإيمان،
كان يمرُّ بمحلات الحي الذي يسكن فيه،
فلا يُنقص له البائع جنيهاً من سعر شيءٍ يريدُ أن يشتريه!

المتنبي في قصر سيف الدولة، وعند كافور الإخشيدي،
ليس هو المتنبي عند الناس!
وأبو يوسف القاضي عند الرشيد في مجلس الخلافة،

ليس هو أبو يوسف في حوانيت بغداد!

وأحمد بن حنبل الذي جاءه بقي بن مخلد من الأندلس إلى بغداد،

مشياً على الأقدام ليأخذ عنه الحديث.

كان في بغداد نفسها من شغله رغيف الخبز عن علمه وحديثه!

يا صاحبي،

ضَعْ نفسكَ في البيئة التي تُقدرك،

لو عُرضت الموناليزا في سوق شعبي لن يشتريها أحد!

وسيف محمد الفاتح عند العامة مجرد خردة من حديد!

والعملة النادرة من أيام الرومان ليس لها عندي وعندك القيمة التي لها عند علماء الآثار،

لا تعرِضْ نفسكَ على رفٍّ يُنقص قيمتك!

أهداني صديق لي ديوان المتنبي بخط ابن جني،

وفيه مداخلات بخط المتنبي نفسه،

لو وقع الكتاب بيد بائع فلافل لربما لفَّ به السندويشات لزبائنه!

والسلام لقلبك

115

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

في العام 1949م عيَّنَ رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح بهيج تقي الدين وزيراً للزراعة،
كانت هذه هي المرة الأولى التي يستلم فيها بهيج تقي الدين حقيبة وزارية،
في تلك الليلة كتب الأديب سعيد تقي الدين،
رسالةً إلى أخيه الوزير يقول فيها:
آخي بهيج، أمدَّ الله في عمركَ،
علمتُ أنك أصبحتَ وزيراً وهذا شرف كبير لعائلتنا،
لكني أحبُّ أن أُذكرِّك بأننا عندما كنا صغاراً،
كنا نتسابق للنوم في فراش أبينا رحمه الله،
ولا شكَّ أنك تذكر كيف كان يشمُّ أيدينا،
ليتأكد أنها نظيفة وأننا غسلناها بعد الطعام،
كي يسمح لنا بالنوم معه،
والآن يرقدُ أبونا في قبره تحت السنديانة،
ولا شكَّ أننا سنرقدُ معه بعد مدة،
فاحرِصْ يا أخي أن تكون يدك نظيفة حين ترقدُ معه!

يا صاحبي،
أثَّرتْ فيَّ كثيراً رسالة سعيد تقي الدين لأخيه الوزير،

وتخيلتنا جميعاً أبناء ذلك الأب الذي
سيشمُّ أيدينا عندما نرقد رقدتنا الأخيرة!
ثم إن لم يكن هناك أب،
فهناك ربّ!

فيا أيها الحبيب أن استطعتَ أن تدخل قبركَ
دون أن تأكل من مال الناس لقمةً لا تحل لكَ، فافعلْ!

فالربُّ الكريم يصفح عما بينك وبينه،
ولكنه من عدله لا يصفح عن حقوق الناس!
وتذكر أنه يُغفر للشهيد كل شيءٍ إلا الدَّين،
ذلك أن كل شيءٍ هو حق اللّه،
والدَّين هو حق الناس!

يا صاحبي،
لا تدخل قبركَ وهناك خاطرٌ كسرته،
أو قلباً جرحته،
أو عيناً أرسلتَ بفظاظتك دمعها!

والسلام لقلبك

116

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

منذ سنةٍ تقريباً قرأتُ كتاب نصائح أب
للمؤلف جاكسون براون،
والكتاب لم يكن مخططاً له منذ البداية أن يكون كتاباً،
هي مجرد نصائح كتبها جاكسون لابنه في ما يُشبه رسالة،
حين أراد ترك البيت والتوجه إلى مدينة أخرى لإكمال دراسته الجامعية...
ثم بدا له بعد ذلك أن يوسع هذه النصائح لتصبح كتابًا،
وخيراً فعل!
إذ أنَّ هذه النصائح لم تذهب أدراج الرياح وتم توثيقها في كتاب!
المهم من هذا كله أننا كنا البارحة نتناقش في قضية
أحسبُ أنك تذكرها جيداً،
وأحسبُ أني لم أُعطِها حقها من الإجابة،
وإنني عندما استيقظتُ صباحاً تذكرتُ نصيحةً من نصائح جاكسون براون لابنه،
وهي نصيحة توفر عليَّ وعليكَ عناء كثير من الحديث!

يقول جاكسون براون لابنه:
لا تُناقش أمورك المادية مع من يملك أكثر بكثيرٍ منك، أو أقل بكثير منك!

يا صاحبي ،

تكاد تكون معظم الأشياء في هذه الحياة نسبية،

وكل إنسان يُقيِّم الأمور بناءً على قدرته ومعرفته بها،

وليس كما هي في أرض الواقع!

فعلى سبيل المثال:

جدول الضرب بالنسبة إلى تلميذ الصف الثالث الابتدائي،

هو شيء صعب!

ولكنه بالنسبة إلى طالب في المتوسط سهل جداً كشربة الماء!

جدول الضرب هو جدول الضرب،

ولكن الناس ليسوا سواءً!

لهذا عندما يُصدر إنسان حكماً على قضية ما،

فإنما يقيس حكمه بمسطرة قدراته!

مسافة كيلو متر مشياً على الأقدام،

هي نزهة جميلة لشاب!

ولكنها مسير عسير على شيخ متهالك!

حتى العسل هذا الطعام اللذيذ،

هو سم لمن يُعاني حساسية منه،

وهذه كتلك!

يا صاحبي.

لقد وقعتَ في حيرةٍ شديدة لأنك أخطأتَ في اختيار مستشاريك!

فاحش الثراء الذي استشرته هوَّنَ عليكَ الأمر،

كون أن ثروتك كلها بالنسبة له لا تعدو أكثر من مبلغٍ ينفقه في إجازة من ثلاثة أيام!

نفس الخطأ كنت ستقع فيه لو استشرتَ من لا يجد رغيف خبز،
لأنه كان سيشير عليكَ كأنكَ تملك مال قارون وخزائنه!

كان يجب أن تستشير من يُشبهك في قدرتك وإمكاناتك،
على أية حالٍ لم تضع تلك الاستشارة سُدى،
أحياناً من المهم أن تعرف أن بعض الناس يعيشون في وادٍ وأنتَ في وادٍ!

والسلام لقلبك

117

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

في أواخر القرن التاسع عشر زار غليوم الثاني ملك ألمانيا رفقة زوجته دمشق،

وخرج الوالي التركي عليها مصطفى عاصم باشا لاستقباله،

وبالإضافة إلى جدول الأعمال المزدحم بالسياسة،

كان هناك جدول ترفيهي وسياحي على هامش هذه الزيارة التاريخية،

وعندما زار الملك غليوم الثاني قلعة دمشق،

رأتْ زوجته حماراً أبيض وديعاً،

فأعجبها شكله ولونه وطلبتْ من زوجها أن يشتريه لها لتأخذه معها إلى ألمانيا،

فبحث الوالي عن صاحب الحمار فإذا هو لرجل بسيط يُدعى «أبو الخير»!

فطلب منه أن يُهدي الحمار للملكة ولكنه رفض،

فعرضَ عليه أن يشتريه منه فرفضَ أيضاً،

وقال للوالي: يا سيادة الوالي الأمر لا يتعلق بالمال أبداً،

عندي حصان عربي أصيل فلتأخذه هدية إن شاءت،

أما هذا الحمار فلا!

سأله الوالي باستغرابٍ عن السبب،

فقال له أبو الخير: سيدي الوالي، إذا أخذوا الحمار إلى بلادهم،

ستكتبُ عنه الصحف ويصبح حديث الناس،

وسيسمونه الحمار الشامي!

وسيقول الناس: ألمْ تجِدْ الملكة في دمشق ما يُعجبها سوى الحمير،

لن أهديها إياه، ولن أبيعه لكَ!

يا صاحبي،

حُب الوطن ليس قصائد عصماء ولا خطب رنانة،

فإذا أردتَ أن تعرفَ مكان الوطن في قلب إنسان،

فلا تنظُرْ إلى ما يقوله بل إلى ما يفعله!

والسلام لقلبك

118

السَّلامُ عليكَ يا صاحبي،

كان جلوبز هوينرنجر قائد سلاح المدرعات في جيش هتلر،
وكانت تربطهما صداقة متينة،
ولكن كما تعرف يا فتى فإن الساسة تجمعهم المصالح وتفرقهم،
أما المشاعر فلبقية الناس!

حصل خلاف عميق بين الرجلين،
فخشيَ جلوبز على نفسه فهربَ إلى بريطانيا،
استقبله الإنكليز بالحفاوة والترحاب،
وأعطوه بيتاً في الريف وخصصوا له راتباً شهرياً،
وما كاد يمضي أسبوع واحد،
حتى حضر إلى منزله ضباط الاستخبارات البريطانية وطلبوا منه،
معلوماتٍ عن سلاح المدرعات الذي كان قائداً له،
وعن أسماء كبار الضباط وعلاقتهم بهتلر،
فرفضَ أن يعطيهم أية معلومة،
وقال لهم: أنتم تريدون خائناً لوطنه لا معارضاً سياسياً لهتلر،
وأنا لا يمكن أن أخون وطني!
عندها عذبوه، وحاولوا انتزاع المعلومات منه بالقوة،

ولكن دون جدوى فقد مات تحت التعذيب، ولم يفشِ أسرار وطنه!

يا صاحبي،

إن الحاكم شيء والوطن شيء آخر،

كراهيتك للحاكم لا يبرر لكَ أن تخون وطنكَ،

الحكام يذهبون ويأتي غيرهم،

أما الوطن فيبقى إلى الأبد!

والسلام لقلبك

119

السّلام عليكَ يا صاحبي،

تسألني: هل يوجد للحياة قوانين؟
فأقول لك: الحياة لا تأتي مع دليل استخدام،
ولكن يمكننا نحن أن نصوغ دليلاً مما تعلمناه، ورأيناه، وسمعناه، وشاهدناه!
وسأحاول أنا أن أصوغ لكَ الآن دليلاً،
لستُ أدَّعي أني أملك حكمة الأولين والآخرين،
أنا كغيري من الناس لديَّ عثراتي وحماقاتي،
ولكن إحدى قواعد الحياة،
أننا نتعلم من عثراتنا وحماقاتنا أكثر مما نتعلم في المدارس!
لتكن هذه هي القاعدة الأولى!

القاعدة الثانية:
يُسخِّرُ الله للطيبين أشباههم،
الله عادل يا صاحبي،
ومن صور عدله أن الجزاء كثيراً ما يكون من جنس العمل،
كُنْ طيباً تُرزق بالطيبين!

القاعدة الثالثة:
من توكل على الله كفاه،
ومن لاذَ بالناس أركنه إليهم!

لا يغيبُ عن بالي أبداً إبراهيم عليه السلام،
وهو في كفة المنجنيق وعما قليل سيُقذفُ إلى النار،
وهو يردد بقلبٍ ثابتٍ:
حسبي الله ونعم الوكيل!
وتحين اللحظة، ويصبح إبراهيم عليه السلام في الهواء،
يأتيه جبريل سائلاً: ألكَ بي حاجة؟!
فيقول له: منك لا، أما من الله فهو أعلم بحالي!
ويصدر الأمر من العالم بالحال إلى النار،
أن كوني برداً وسلاماً!
فعلِّقْ قلبكَ دوماً بالله!

القاعدة الرابعة:

من لَزِمَ الحمد تتابعتْ عليه الخيرات،
يُحبُّ الله الوفاء يا صاحبي،
يُحبُّ أن يرى معروفه مع عبده يُشكر،
ويحبُّ أن يرى معروف الناس مع الناس يُقدَّر،
أتعرف لماذا كان عقوق الوالدين من الكبائر؟
لأنه جحود ونكران للمعروف،
ولا أحد أوفى من الله، ولا أحبَّ للوفاء منه،
فإذا أردتَ أن تدوم النعم عليكَ فأحسِنْ شكرها
بلسانك وجوارحكَ!
اشكر المال الذي أوتيته بالصدقة،
والعلم الذي أُعطيته بتعليم الناس،

والرأي الذي وُهبته بإرشاد حيرانٍ ودلٍّ تائه.

والصحة التي عليكَ اجعلها بالحق،

الحمدُ ليس لساناً فقط، الحمدُ أسلوب حياة!

القاعدة الخامسة:

من عرفَ اللّه في الرّخاء، عرفه اللّه في الشدة!

من أمثال الجدات الجميلة الذي يُضرب للذي

لا يعرف اللّه تعالى إلا في وقت الشدة،

كالعتال الذي لا يعرف ربه إلا تحت الحِمل!

صحيح أن اللّه سبحانه هو ملاذنا الآمن،

وأن العثرات تشعرنا بضعفنا فنلوذ بالقوي القادر،

ولكن هل عرفنا اللّه في الرخاء؟!

هل ادخرنا عنده يداً لوقت الضيق؟!

قال اللّه تعالى عن سيدنا يونس:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

كان عابداً في الرخاء، مسبحاً وذاكراً،

فلما جاءت الشدة أوفى اللّه تعالى له الكيل،

فلا يكن اللّه في نظرك كمخرج الطوارئ،

الذي لا يُلجأ إليه إلا في الأزمات،

ليكن دائماً أولاً وقبل كل شيء،

تكُنْ أنتَ عنده أولاً وقبل كل شيء!

القاعدة السادسة:

من لزمَ الاستغفار فُتحتْ له المغاليق!

كان ابن تيمية يقول:

إن المسألة من الفقه لتُغلق في وجهي،

فأستغفرُ اللّه ألف مرَّةٍ فتُفتح عليَّ.

يا صاحبي،

كل الأبواب الموصدة هي خلق من خلق اللّه،

ومفاتيحها بيده،

وما استجلبت المفاتيح بمثل الاستغفار،

فإن ضاقَ عليكَ أمر فاستغفر كثيراً،

ثم خذ بالأسباب ما استطعتَ،

ستجد البركة والتوفيق والفتوحات،

كل الدنيا بيد اللّه فلا تبحث عنها بعيداً عنه!

القاعدة السابعة:

لا تُجبر نفسكَ على أحدٍ، ولا تُجبر أحداً عليكَ!

القلب وما يهوى يا صاحبي،

جامِلْ في المعاملة. وكُنْ لبقاً فهذه هي أخلاق النبلاء،

ولكن لا تقل لأحدٍ: أحبك

ما لم تكُنْ تعنيها!

الصدُّ أول الأمر قد يبدو جارحًا،

ولكنه أقل جرحاً من أن تعطي أحدهم الأمل بك،

وأنتَ تعلم أنه لا يوجد له في قلبكَ متسع،

كُنْ حازماً فهذا أسلم لكَ ولهم،

واحفظْ ماء قلبكَ،

ولا تبذله لريِّ شجرة ميتة،

الحُبُّ من طرف واحدٍ مذلة،

والعاشق ليِّن ولكنه ليس بالذليل،

لا تخلط بين الأمرين فتهلكَ!

القاعدة الثامنة:

الطريقة الوحيدة لتحصل على الحُب هي أن تقدمه!

الحُبُّ حصاد يا صاحبي،

والحاصدُ لا بُدَّ أن يكون زارعاً أولاً،

قبل أن تسأل عن نصيبك من الحُب،

اسأل نفسكَ ماذا قدمتَ أنتَ منه؟!

تحصدُ الاهتمام حين تزرعه أولاً،

الآخرون غالباً ليسوا إلا صدىً لما نفعله،

إذا كنتَ في وادٍ وصرختَ فسيرجع إليك الصوتُ حاملاً لكَ ما نطقته،

وهكذا هو الحُب!

ازرعه أولاً ثم اقطفه فلا حصاد إلا لزارع!

القاعدة التاسعة:

لا تتوقع أن يحبكَ الجميع،

حتى الأنبياء وهم أنبياء لم يحبهم الجميع،

لا بُدَّ للإنسان من كاره!
إبليس كره آدم عليه السلام قبل أن يُنفخ فيه الروح،
وللأسف إن الناس أحياناً يكرهونك لمزاياك وليس لعيوبك،
فذنبُ يوسف عليه السلام عند إخوته أنه كان جميلاً فقط!
الكره مرض يا صاحبي،
تعامل مع الكارهين كأنهم مرضى
يستحقون الشفقة أكثر مما يستحقون المواجهة!

القاعدة العاشرة:

الناس يتغيرون دوماً،
قلة هم الذين يبقون على الحال الذي عرفتهم عليه أول مرة!
حتى نحن نتغيَّر يا صاحبي،
أنتَ لستَ نفس الشخص منذ عشرين سنة،
لقد قرأتَ ونضجتَ وتعلمتَ،
من الناس من يرتقي كثيراً،
ومن الناس من يهبط كثيراً!
فتعامل مع الجميع ضمن التحديث الجديد لهم،
لا وفق الانطباع الذي كونته عنهم أول مرة!

القاعدة الحادية عشرة:

كلنا نملك نفس العين ولكننا لا نملك نفس النظرة،
ما تراه أنتَ بديهياً،
قد يستغرق الآخرون وقتاً طويلاً لإدراكه،

وما غابَ عنك طويلاً،

كان غيرك قد أدركه منذ أول وهلة،

نحن يا صاحبي حين نحكم على الأشياء،

إنما نحكم علينا بناءً على ما نحن عليه،

لهذا إن موقفنا تجاه قضية ما،

لا يخبر بحقيقة هذه القضية،

وإنما يُخبر بحقيقتنا نحن!

القاعدة الثانية عشر:

قدرات الناس متفاوتة،

بعضهم يحفظ صفحة ولا يستطيع أن يفهم مسألة،

وبعضهم يفهم مئة مسألة ولا يستطيع أن يحفظ سطراً!

لاعبو كرة القدم يركضون تسعين دقيقة،

نحن نلهث بعد ركض دقائق قليلة!

العصفور يطير، والسمكة تسبح، هكذا خُلقوا!

عبث تعليم العصفور السباحة، والسمكة الطيران،

وهكذا هم الناس،

فلا تُقارن، ولا تقبل أن تتقارن!

القاعدة الثالثة عشرة:

كُلُّ مُرٍّ سيمرّ،

ودوام الحال من المحال كما قالتْ العرب،

اللحظات الحلوة ستمضي،
واللحظات المرة كذلك،
وانتظار الفرج عبادة!
تعامل مع الانتكاسات على أنها مرحلة وليست خط حياة،
ومع الإخفاقات أنها شواذ لا قاعدة،
الأشياء لا تلبث على حالٍ يا صاحبي،
طلبَ أحد الملوك من وزيره
أن ينقش له جملة على خاتمه،
إن قرأها وهو سعيد حزن،
وإن قرأها وهو حزين سعد،
فنقش له على الخاتم: هذا الوقت سيمضي!

القاعدة الرابعة عشرة:

البكاء يُعزي ولكنه لا يعيد الغائبين!
أندبْ حظّكَ إن وجدتَ ذلك مجدياً،
وابكِ تتخلص من همٍّ رابضٍ على صدرك،
ولكن عليكَ أن تعلم أن الأشياء أحياناً تنتهي إلى غير رجعة!

القاعدة الخامسة عشرة:

كرمُكَ الزائد يُعتاد عليه حتى يُصبح واجباً،
يا صاحبي إن أسوأ ما في طباع الناس،
أنهم يعتبرون معروفك حقاً من حقوقهم عليكَ،
إنهم لا يميزون بين ما تبذله حُباً،

وبين ما يجب عليكَ أن تبذله أساساً،
احذرْ من هذا الصنف من الناس،
أما الذين يُقدرون المعروف،
فابذل، ولا تبقِ منكَ شيئاً!

القاعدة السادسة عشرة:

لا تخسر نفسكَ وأنتَ تحاول الحفاظ على من لا يهتم بفقدانك،
تشبَّثْ بأحبابك،
الأحباب أحياناً يقولون أنهم يريدون أن يرحلوا،
وكل شيءٍ فيهم يريدُ أن يبقى،
وحدكَ تعرفُ هذا الأمر،
أما الذي يريدُ أن يرحل فعلاً،
فلن يبقيه شيء مهما حاولت،
فكُنْ عزيزاً!
من عزم على الرحيل زهداً بكَ،
لن تقيده حبال العالم ليبقى،
أما المُحب فحبل القلب يكفيه!

القاعدة السابعة عشرة:

إذا أراد الله شيئاً تعطلتْ قوانين العالم لأجله،
يا صاحبي إن موسى الرضيع لم يغرق،
وإسماعيل عليه السلام لم يُذبح،
ويونس عليه السلام لم يُؤكل،

ومريم العذراء أنجبتْ من غير زوج،

وسارة أنجبتْ وقد بلغتْ من العمر عتياً!

القاعدة الثامنة عشرة:

التواضع في غير موضعه مذلة،

والعفو من غير قدرة ضعف،

فلا تفعل أشياء قبيحة،

موهماً نفسك أنك آخذ بمكارم الأخلاق!

القاعدة التاسعة عشرة:

السعادة معدية والكآبة كذلك،

لا شيء أضر بالقلب من رفقة النكدي!

وقد قالوا قديماً:

صاحب السعيد تسعد!

القاعدة العشرون:

آراء الآخرين بك هي وجهة نظرهم عنكَ،

فلا تجعلها واقعك!

قول أحدهم إنكَ فاشل،

هو مجرد رأي لن يصبح حقيقة،

إلا عندما تؤمن في قرارة نفسك أنك فاشل!

القاعدة الواحدة والعشرون:

لا تندم على شيء،

الأيام الجميلة أسعدتكَ،

والأيام السيئة أنضجتكَ،

نحن مدينون للمصاعب يا صاحبي،

لأنها تجعلنا أقوى،

وللعثرات لأنها تُعلِّمنا،

بدون النار لا يُصبح العجين خبزاً،

وبلا طرق الحداد لا يصير الحديد أبواباً وشبابيك،

ولو قارنتَ كل وجعٍ بالدرس الذي تعلمته،

لبدا لكَ أن الدرس أثمن!

القاعدة الثانية والعشرون:

إذا كنتَ تنتظر وقتاً مناسباً لتبدأ شيئاً ما،

فأبدأْ الآن!

الأوقات المناسبة لا تُنتظر يا صاحبي،

وإنما تُصنع!

وكل الأوقات مناسبة لفعل أشياء جيدة،

الانتظار مقتل الهمم!

القاعدة الثالثة والعشرون:

اِرفقْ بنفسِكَ!

كل إنسانٍ كان سيئاً في لحظة ما!

جميل أن تُحاسب نفسك وتؤدبها،
والنبلاء يخجلون من الأخطاء التي يرتكبونها،
أو حتى من الصواب الذي لم يفعلوه،
ولكن لا تنسَ أننا على هذه الأرض بسبب خطيئة،
نحن أبناء الرجل الذي أكل من الشجرة المحرمة ففارق جنته!
لا تجلِدْ نفسك أكثر من اللازم،
وإنما أصْلِحْ أخطاءك فهذا أول الندم،
وتعلم الدرس فهذا أجمل الثمن!
ولكن تذكر أنتَ نهاية المطاف بشر!

القاعدة الرابعة والعشرون:

هناك لحظة عليكَ أن تتوقف فيها،
أن تتوقف عن المحاولة،
أو عن تقديم التنازلات،
ليس عيباً أن تعود من منتصف طريق خاطئ،
الذي لا جدوى منه أن تستمر في ري نبتة ميتة لفظت أنفاسها!
ولكن ميِّز بين العلاقات التي انتهتْ،
وبين تلك التي تحتاج إلى إصلاح!
لا يعثر المرء كل يوم على حبيب،
والقلوب تعشق فعلاً وليست مجرد عضلات لضخ الدم!
في الفقه: إذا كثر الماء لم يعد يحتمل الخبث،
فاغفِرْ لمن زاد إحسانه معك عن القُلتين!

القاعدة الخامسة والعشرون:

الناس ليس لهم ردة فعل واحدة تجاه أمرٍ واحدٍ،

نحن متشابهون من الخارج فقط،

ولكننا من الداخل عوالم وقارات ومحيطات!

من الناس من يرضى عند أول استرضاء،

ومن الناس من عليكَ أن تحاول معه كثيراً!

ليس الأول متسامحاً، ولا الثاني حقوداً!

ثمة أشياء في الطبع يا صاحبي، لا يمكن أن تتغير!

اعرِفْ نفسية الذي تتعامل معه،

يهُنْ الأمرُ كثيراً عليك!

القاعدة السادسة والعشرون:

أحياناً الفعل الوحيد الصائب هو أن لا تفعل شيئاً!

ثمة أشياء لن تتغير مهما حاولت،

الحفاظ عليها بهذا الشكل أسلم،

بعض الأشياء لن تستقيم أبداً كما تريدُ،

أي محاولة لإقامتها بالقوة قد تؤدي إلى كسرها،

سمة الحياة النقص يا صاحبي،

فتقبّل الأشياء الناقصة!

بالمناسبة: أنتَ أيضاً لستَ كاملاً!

القاعدة السابعة والعشرون:

أحياناً عليك أن تتراجع قليلاً،

وهذا ليس انهزاماً،
كل ما في الأمر أن الاندفاع دائماً إلى الأمام غير مجدٍ،
انظُرْ للسهم في كبد القوس،
لا بُدَّ للرامي أن يعيده إلى الوراء،
كي ينطلق إلى الأمام مسافة أطول،
بعض التراجع يكسبك قوة، فتنبّه!

القاعدة الثامنة والعشرون:

دع الأمور تهدأ قليلاً،
لا يمكنك أن ترى صورة وجهك على صفحة الماء وهو يغلي،
والبحث عن حل فوري مع شخص غاضب
كمحاولة قراءة صحيفة في عاصفة!
عندما تهدأ العاصفة يمكنك تقليب الأوراق بسهولة،
ولكن لا تنتظِرْ أكثر من اللازم!
المشاكل التي تأخذ وقتاً أكثر من اللازم لحلها،
تتعقد بشكل لا يريده أحد!
أعطِ كل شيءٍ وقته لا أكثر ولا أقل!

القاعدة التاسعة والعشرون:

لا تعِشْ دون قضية!
إذا كنت تعيش لتأكل وتشرب وتنام،
فاعلم أنَّ العبيد كانوا يحصلون على هذه الأشياء زمن الرِّقِ!
الذي يعيش لنفسه يستريح،

ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً!
جِدْ لكَ فكرة تستحق أن تموت لأجلها،
يا صاحبي إن الذي ليس لديه شيء يموت لأجله،
ليس لديه شيء يعيش لأجله!

القاعدة الثلاثون:

ما دام هناك إرادة فهناك سبيل!
فمن كان جاداً في البحث عن الإبرة،
سيجدها ولو كلفه ذلك إحراق كومة القش،
ومن لم يكُنْ جاداً في إيجادها،
لن يُكلف نفسه عناء الانحناء لالتقاطها ولو كانت بين قدميه!
بعض الظروف قاسية هذه حقيقة،
ولكن لا تنسَ أن كل شيءٍ تغيَّر في هذا العالم،
كان في يومٍ من الأيام ظرفاً قاسياً!

القاعدة الحادية والثلاثون:

العاصفة لن تهدأ قبل مرورها،
أنتَ الذي عليكَ أن تهدأ ريثما تمر،
الأشياء تؤثر فيك بقدر سماحك لها أن تفعل،
ردة فعلك هي التي تعطيها مساحة تأثيرها!

القاعدة الثانية والثلاثون:

القمة تتسع للجميع،
إن كنت تعتقد أنك لن ترتقي إلا بإسقاط غيرك،

فقد سقطتَ قبل أن ترتقي!

بدل أن تحسد الناجح تفوق عليه،

أو على الأقل تعلم منه!

وقد قالوا قديماً:

تكسيرك لمجاذيف غيرك لن يزيد في سرعة قاربك!

القاعدة الثالثة والثلاثون:

التردد مقبرة الفرص!

هناك أبواب لا تُفتح إلا مرة واحدة في العمر،

إن لم تدخل منها ستبقى في الخارج إلى الأبد!

وقد قالوا قديماً:

إذا هبَّتْ رياحك فاغتنمها!

القاعدة الرابعة والثلاثون:

لا تسقط سريعًا!

في الملاكمة لا يفوز من يُسدد اللكمات،

وإنما الذي يتلقاها بثبات!

وهكذا في الحياة،

بشكل ما، هذه الدنيا حلبة ملاكمة!

فتوقع دومًا أن تُلكم، وتعلّم كيف تتلقاها بثبات!

القاعدة الخامسة والثلاثون:

لا تخسر من يحاول استرضاءك دائماً،

لا يعثر المرءُ كل يوم على شخص يقدمه على نفسه،

سأل الصحفي يوماً إحدى العجائز:
كيف استمر زواجكما سبعين سنة؟
فقالتْ: نحن من جيل إذا انكسرتْ فيه الأشياء
نُصلحها ولا نرميها!
كلنا نستحق فرصة ثانية،
فأعطِ الآخرين فرصة أن يُصلحوا ما أفسدوه!
يا صاحبي، يقول الأطباء أن العظم المكسور،
يصبح بعد الجبر أقوى من العظم الذي لم يُكسر!

القاعدة السادسة والثلاثون:
كُلُّ إنسانٍ فيه ما يكفيه،
فمُرّ هيناً!

القاعدة السابعة والثلاثون:
عاتِبْ أحبابك فالعتاب مجلاة القلوب،
ولكن تذكر لا أحد تهون عليه كرامته حتى المُخطئ،
وتذكر دوماً نحن نعاتب لنُصلح لا لنكسر!

القاعدة الثامنة والثلاثون:
الذي يُحب لا يُحب الميّزات فقط
وإنما يُحب العيوب أيضاً!
فتقبّلْ أحبابك كما هم!

القاعدة التاسعة والثلاثون:

كل علاقة لها قوانينها الخاصة!

نحن بشر ولسنا معادلات رياضية،

لا تعمم تجاربك على الآخرين،

ولا تستنسخ تجارب الآخرين!

الأشياء التي تستمر بها العلاقات

هي الأشياء الأنجح لها!

ليس كل المرضى يتعالجون بدواء واحد،

ولا كل الأصحاء يحبون طعاماً واحداً!

القاعدة الأربعون:

لا أحد يعرف كل قواعد الحياة،

وهذه أهم قاعدة ذكرتها لك!

والسلام لقلبكَ

A D H A M   S H A R K A W I

السَّلامُ عليكَ يا صَاحبي

يا صاحبي،

ليس كل من واساكَ خالياً من الحُزن،

لعلَّه عرف معنى أن يحزن المرءُ ولا يجد أحداً يواسيه!

ولا كل من أعطاكَ ثريٌّ،

لعلَّه عرفَ جيداً معنى أن يحتاجَ المرءُ ولا يجد!

ولا كُل من ربتَ على كتفكَ ليس له هَمٌّ،

لعله أراد أن يدعو بطريقةٍ أخرى، فيقول صامتاً وهو يُطبطبُ عليكَ:

ها أنا أربتُ على أكتاف الناس فاربِتْ على كتفي يا الله!



kalemat
www.kalemat.com



